الطفلة إيمان

بداخل الأوراق .. مالا تتوقعه .. كن متهيئاً للصدمات!

رواية

حزام بن راشد



توزيع
NOVA PLUS FOR PUBLI STRIBUTING

الطبعة التاسعة

وجدت نفسي..

أستمع إلى مشاكل الجميع.. إلى جراحهم..

ولم أجد من يسمعني!

هل هذا قدري حقاً؟

****

هذا ثالث إصدار من إصداراتي..

اكتبه.. وأنا مُتعب جداً!

مُتعب جداً.. حتى العتب..

إن شئتِ.. أطلقي عليها اسم.. "ثلاثية العتب"!

إهداء..

ليس كل شيء يقال.. لذلك..

سأتركه هذه المرة فارغاً من الكلمات.. مليئاً بالتخمينات!

( )

إهداء..

إهداء إلى وطني..

أراكَ كل يوم تتجدد.. وتصبح أفضل..

ولكنني أنتظر منك الكثير والكثير..

ليس طمعاً.. وإنما حباً.. وعشقاً..

حفظك الرب..

إهداء..

إلى كل طفل متضرر على كوكب هذه الأرض..

وبالأخص.. إلى الأطفال الذين اختفوا فجأة!

..إهداء خاص إلى قرائي الأعزاء..

هذا إصداري الخامس بين أيديكم..

كنتم وما زلتم.. الدافع المحفز لاستمراري منذ بداياتي..

أشكركم.. جميعاً.. فرداً فرداً..

فلن تكوني امرأةً..

إلا معي..

إلا معي..

نزار قباني

****

الشيء الوحيد الذي يجعلنا نجبر الكسور..

.. هو الكتابة..

الكتابة وحدها تمنحنا هذه الفرصة..

واسيني الأعرج

أحياناً..

قراءة الأحداث البشعة في الحياة مفيدة!

لأنها تخبر بأن حالنا.. أفضل بكثير عن حال غيرنا..

وعندها.. سوف نترك السوداوية المقيتة..

التي نختلقها لأنفسنا كل يوم!

وسوف نفكر بعد ذلك بإيجابية..

في ثواني.. تحولت حياتي!

ما حدث لي.. لا يصدق.. لم أستطع تصديقه..

ولا أعلم لماذا أنا بالذات حصل معي كل هذا!!

لكنني سأخبركم به.. وعليكم التركيز.. والحذر!

وقبل أن تواصلوا القراءة.. سوف أطلب منكم طلباً..

تأكدوا من أن صغاركم الذين معكم الآن جميعهم بأمان!!

سواء كانوا أشقاءكم أو أبناءكم.. أو حتى أقرباءكم!

لا تتركونهم في الشارع.. أو في المول أو حتى بالمصلى وحدهم!

وهم ما زالوا أطفالاً أبرياء..

هل تأكدتم؟ أتمنى ذلك.. فالأمر جدي فوق ما تتصورون!

إن كنتم لا ترغبون بفقدانهم إلى الأبد طبعاً!!

افعلوا ما طلبته منكم دائماً.. ومن دون تهاون!

سأدخل في الأحداث من دون تمهيد..

أنا فتاة سعودية.. لم أهنأ بطفولتي..

خاطفتي!.. هي السبب في كل تفاصيل دماري!!

امرأة عجوز باكستانية الجنسية.. اسمها سلوى..

في عام 2005 م..

كنت ابنة الثالثة عشرة حينها.. برفقة أهلي.. عائلة صغيرة مكونة من والدايّ وأختي الصغرى وأنا..

كنّا متوجهين عصراً من جدة إلى مدينة الباحة(1) براً..

لقضاء إجازة قصيرة كما أذكر..

وكعادة أي عائلة تسافر بالسيارة.. توقفنا عند محطة تزويد الوقود.. من أجل التزود ببعض المواد الغذائية وغيرها..

لكن موعد صلاة العصر.. تسبب بإغلاق كل تلك الخدمات.

كما هو النظام.. وعليه قررنا أن نصلي العصر, ثم نأخذ

ما نريد، وننطلق بعدها لبداية رحلتنا..

أوصلنا والدي أنا وأمي وأختي إلى المصلى المخصص للنساء.. وذهب هو لمصلى الرجال..

لم تمضِ دقائق حتى أُقيمت الصلاة..

وكعادتي الشقية.. انتظرت دخول والدتي في الصلاة..

بعدما وقفت أختي الصغيرة التي تصغرني بثلاث سنوات

الى جانبها..

كي أرجع الى مؤخرة المصلّى وأبدأ في اللعب والتجول..

كان كل شيء ممتعاً بالنسبة لي.. حتى نزولهم للسجود!

لم أشعر بشيء!!

سوى بانقطاع أنفاسي! وبسرعة ظلام دامس اغتال عينيّ!

لم أفتحهما سوى على منظر سقف خشبي متآكل!!

قمت مفجوعة.. ونظرت بسرعة على يميني ويساري..

وإذ بامرأتين من الجنسية الباكستانية في غرفة..

وفتاة عمرها من عمري تقريباً!

العجوزتان بشعتان بكل ما تعنيه الكلمة من بشاعة..

تنظران إليّ بطريقة مخيفة..

ابتسمت إحداهما بعد أن نظرت إلى الأخرى..

وظهرت أسنانها المرعبة.. وكانت إحداها لونها ذهبية..

والصف العلوي يكاد يكون كله مفقوداً.. والبقية متناثرة بشكل عشوائي..

تحدثتا مع بعضهما بفرح بالغ.. وبلغة لم أفهمها أبداً..

وفي أقل من ثوانٍ بعد هذا المشهد المخيف..

علمت أنني.. مخطوفة!

لقد تم تنويمي بواسطة منديل مخدر تم وضعه على أنفي في غفلة مني.. وخرَّت حينها كل قواي بهدوء..

ولم يشعر أي أحد من النساء المنهمكات بأداء صلاة العصر

بأي شيء من الذي حصل لي..

انفجرت باكية..

حاولت الهروب.. ولم أجد سوى الالتصاق بأحد الجدران المتسخة.. وارتفع صوتي بالبكاء وأنا مذعورة غير مصدقة ما شاهدته.. وبدأت أصرخ: ماما.. ماما..

أصبتهما بالتوتر والغضب.. فقامت تلك العجوز صاحبة السن الذهبية.. واندفعت نحوي.. وشدتني من شعري بقوة.. ثم أغلقت فمي بيدها المجعدة.. كي تكتم صراخي.. لم أستطع التوقف.. وشعرت بأن نبضات قلبي تكاد تصل إلى

حنجرتي.. كما شعرت كذلك باختناق أنفاسي شيئاً فشيئاً..

حتى خُيل إليّ أنني أصبحت أبكي من غير صوت..

دخل على ذلك الإزعاج رجل كبير في السن.. من نفس

جنسيتهما.. وصرخ بأعلى صوته:

- سلووووووى!!

تركتني مسرعة.. فسقطتُ على الأرض وواصلت بكائي..

محاولة التقاط أنفاسي.. ثم واصل كلماته بصوت مرتفع

وكأنه يحذرها.. وما كان منها سوى الاستجابة!

علمت من ذلك أن سلوى.. هو اسم هذه العجوز..

وعلمت بعد ذلك أنها زوجته.. والفتاة الصغيرة ابنتهما.. والمرأة العجوز الثانية شقيقته..

اقترب مني وتحدث معي بلغة عربية مكسرة..

طالباً مني الهدوء وعدم الصراخ كي لا أتعرض للضرب!

أخرج المرأتين من الغرفة.. وخرج وراءهما.. ثم أغلق الباب عليّ.. وعلمت حينها أنني لست مختطفة وحسب.. بل محتجزة أيضاً!

الصدمة التي أصابتني.. لم تفارقني.. والرعب الذي حلّ بي جعلني أواصل بكائي بصوت منخفض خوفاً من غضب الرجل ومن معه..

كنت أنادي أمي كثيراً.. تعودت عليها بأن تجيبني مباشرة..

ولكن هذه المرة.. لم تجبني!

رأسي كاد ينفجر وقتها.. فلم أستوعب ما كنت عليه..

آخر ما أذكره أنني كنت ألهو في المصلى, والآن أتواجد في منزل قديم مع أناس غرباء!

كنت كما لو أنني أحلم حلماً مخيفاً..

وأنتظر موعد استيقاظي.. الذي رفض أن يحضر..

لم أنَم تلك الليلة أبداً.. حتى أتى وقت الظهيرة في اليوم التالي..

فنمت مجبرة من فرط الإجهاد..

لكنني لم أتعمق في النوم.. حتى فتح أحدهم الباب بطريقة عنيفة..

جعلتني أفزع من نومي.. لقد كانت العجوز سلوى..

قدمت لي الطعام.. ولم أتقبله.. بل ركلته برجلي وأنا غاضبة وأبكي.. ووجدت صوتي يرتفع بالصراخ لا إرادياً..

أغضبتها كثيراً.. غضباً مخيفاً.. فاعتدت عليّ بالضرب

طالبة مني السكوت.. ثم خرجت متوترة وأغلقت الباب..

وبعدما هدأت.. اضطررت لتناول ما تبقى من الطعام الذي

لم يسقط على الأرض بعد.. قبل أن يقضي عليّ الجوع..

فالعناد قد يكون مع كل شيء.. إلا مع الطعام..

تكرر ذلك يومياً.. وفي كل مرة يُفتح عليّ الباب..

كنت أتمنى لو أرى أمي أو أبي.. لكنها تكون كالعادة..

العجوز سلوى..

واصلت البكاء والصراخ المزعج والعناد بشكل متواصل.. وكنت أتلقى بسبب ذلك الضرب.. والتهديد..

فأستجيب في البداية.. ولكن لا تمر ساعات حتى أعاود خلق التوتر لهم كما أن شيئاً لم يكن..

هذا الشيء.. أصاب سلوى وزوجها بالقلق.. والخوف من افتضاح أمرهما.. فالحي الشعبي مكتظ بالبيوت المتقاربة..

لذلك، لم أبقِ لهم مجالاً للصبر أكثر من أسبوع!

حتى دخل عليّ الغرفة في ذلك اليوم بعد منتصف الليل..

زوج سلوى المسن وهو يحمل بيده لاقطا نحاسياً!

ومن دون مقدمات وبكل بساطة.. اقترب مني وقبض عليّ..

مددني أرضاً وأمسك بكلتا يديّ ووضعها تحت ركبته!!

حاولت المقاومة ولكن لا أمل.. شعرت وكأنني فأرة تافهة..

تحت رحمة ضبع كاسر..

إلى أن دخلت سلوى ومعها منجل جمر يسطع احمراراً!

لم أصدق ما رأيته.. وشعرت بالخطر حينها..

عندها قمت بالصراخ والبكاء.. لكنه أغلق فمي بإحكام..

كي يكتم صراخي وتوسلاتي!

التقط جمرة حمراء تفوح حرارتها.. نفخ عليها قليلاً..

ثم اقتحم فمي بإصبعيه.. وأخرج لساني.. وبكل جبروت..

كوى لساني ثلاث مرات متتالية في أماكن متقاربة!!

انتفض جسدي بقوة.. وشعرت بتشنج.. كما لو أنني أُسلَخ من الداخل..

لا يمكنني التعبير.. أو وصف الذي شعرت به وقتها..

لقد شعرت بأنني لا أشعر شيئاً!

قام بعدها بمسح وجهي بالماء بشكل متكرر..

ولم يتركني إلا بعد دقائق.. بعدما شعر بأنني خاملة..

رغم أنني لم أنقطع عن البكاء القوي أبداً..

كل هذا حصل.. وسط نظرات سلوى التي لم تتحرك أبداً

ولم تتأثر من المشهد..

لقد فعلا ذلك كي أصبح ملكهما.. ولكي تقل خطورتي أيضاً

من الاعتراف ربما أو الحديث مع أي أحد في الحي.. ربما..

أغمى عليّ بعدها.. ونمت نوماً عميقاً في مكاني نفسه الذي تركني فيه..

حتى حلّ الصباح..

استيقظت من الألم الفظيع الذي يلازم لساني..

بكيت.. حاولت أن أصرخ بكلمة: أمي..

لكنني لم أستطع حتى أن أبلع ريقي..

جلست ثم بدأت أتحسس لساني.. حاولت النطق مرة أخرى..

فكانت الكارثة التي آلمت قلبي!

لا أستطيع نطق الكلمات بشكل سليم!!

لقد تشوّه لساني!

بكيت على حالي.. ثم دخلت عليّ الغرفة العجوز سلوى بعدما سمعت بكائي.. وبيدها عصا..

هددتني بالضرب إن ارتفع صوتي بالبكاء أو غيره..

أغلقت فمي بيديّ.. وحاولت أن أكتم صوتي كي لا تغضب

مني.. وأنا مرعوبة جداً.. حتى ابتعدت عني..

لم أصدق ما حصل لي..

مرت الأيام.. قرابة الأسبوعين..

قلّ بكائي شيئاً فشيئاً.. حتى الألم في لساني اقترب من الاختفاء..

وأصبحت ملابسي متسخة بشكل لا يطاق..

كانوا لا يسمحون لي بالاستحمام.. فقط يتركونني لقضاء حاجتي..

في تلك الفترة.. بدأت العجوز سلوى السماح لي بالخروج

من الغرفة, والجلوس في الصالة الصغيرة مع زوجها غريب الأطوار! فقط بعد صلاة العشاء وحتى قرابة منتصف الليل..

لاحظت وجود العديد من الغرف الأخرى..

لكن الذي شد انتباهي منذ اليوم الأول الذي أصبحت

أجلس فيه معهم.. هو الذي كان يحدث يومياً

عند الساعة الحادية عشرة مساء!

في ذلك التوقيت.. كان يتوافد على البيت مجموعة أطفال!

منهم آسيويون وأفارقة وعرب!

يقفون صفاً.. بكل هدوء وخوف.. ثم يبدؤون بتسليم الرجل المسن الكثير من المال!

ومن ثم يتوجهون نحو غرفهم للعشاء والنوم!!

كان يطبطب على رؤوس بعضهم.. كنوع من الثناء..

ويضرب بعضهم الآخر بعصا خشبية يمسكها بيده..

عقاباً على تقصير لم أفهمه..

تكرر ذلك الشيء أمامي.. حتى علمت أنني قد وقعت بين

أيادي عصابة تسول.. تتسول في بلدي!!

يقودها هذا الرجل المسن.. برفقة زوجته العجوز..

بدأ الخوف يزداد..

حتى أتى ذلك اليوم الذي بدأ الرجل بتمشيط جسدي

بنظراته المرعبة.. ويتحدث مع زوجته بلغتهم..

إلى أن ذهبت سلوى وأحضرت فتى يمني الجنسية..

يدعى يحيى.. لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة تقريباً..

تحدثا معه بلغة عربية سيئة..

وطلبا منه أن يأخذني معهم صباحاً ويهتم بي!!

لم أنَم جيداً تلك الليلة.. بسبب القلق الذي أصابني..

وفعلاً.. أتى الصباح.. أيقظوني من نومي..

فتحت عينيّ بصعوبة.. كانت سلوى ويقف بجانبها يحيى..

طلبت مني مرافقته وحذرتني من التصرف بحماقة..

كانت تقول ذلك وهي تقرص ساعد يدي بقوة كي ترهبني..

لكنني رفضت.. وبدأت في البكاء.. فأنا لا أعلم إلى أين سوف يأخذني..

قامت بضربي وتهديدي.. فأفعال يدها معي كانت أكثر

من أقوال فمها.. إلى أن تدخل يحيى..

وتحدث معي بلغة واضحة.. طالباً مني الهدوء ومرافقته

لـ «العمل»!

لم أفهم ماذا يقصد بالعمل..

استغرق إقناعي قرابة النصف ساعة..

أقنعني بأنها مجرد ساعات فقط.. وسوف نعود بعدها..

وافقت وأنا ارتعش خوفاً ومجبرة..

كانت ملابسي تفوح رائحتها بشكل لا يطاق، وشعري الذي تعودت أن تهذبه لي والدتي قبل خروجي من المنزل كل صباح.. لم أجدها كي تهذبه لي تلك المرة..

خرجت مع مجموعة من الأطفال ومعنا ابنة سلوى أيضاً..

كنت قلقة جداً.. استقبلت عيناي أشعة الشمس التي تخترق الثغرات الموجودة بين البيوت.. لم أتحمل قوتها..

خصوصاً أنني لم أشاهدها منذ قرابة الشهر..

لفت نظري.. عندما خرجت من المنزل مباشرة قبل أن أتحرك.. منظر الشارع الغريب الذي كنا فيه..

أذكر البيوت الشعبية المتهالكة(2)

.. جدرانها متشققة.. مياه المجاري سائبة على الأرض.. والروائح الكريهة كانت تحتل كل الهواء.. لم أتحمل كل ذلك أبداً على الرغم من أنها لم تمر الا بضع دقائق فقط.. فكيف من يعيش هنا ويتجول يومياً؟

كانت أشكال وجوه المارة غريبة ومخيفة!

أفارقة من أصحاب البشرة السمراء.. والكثير من الآسيويين.. وكلهم يرتسم على وجوهم الضيق والانشغال..

لم ألاحظ عليهم تأثرهم بالرائحة.. وكأنها الرائحة الطبيعية بالنسبة لهم.. طلب مني يحيى ألا أبتعد عنه مهما حصل.. وهددني بأن أي محاولة للهرب سوف يرجعني بقوة إلى المنزل، وعندها ستتولى أمري العجوز سلوى..

أرهبني بكلامه هذا..

فمن يشاهد تفاصيل وجه سلوى عندما تغضب..

يفكر ألف مرة قبل أن يفعل تصرفاً يغضبها..

تحركنا سيراً على الأقدام.. قرابة النصف ساعة..

لم أقوَ على المواصلة.. حتى أخبرني بأننا قد وصلنا!

رصيف.. شارع.. إشارة مرور.. سيارات..

هذا كل ما كان أمامي!

طلب مني أن أنتظر تحت ظل الشجر..

ثم سألني باستغراب قبل أن يذهب:

- أنتِ سعودية؟

أشرت له برأسي بأن ما يقوله صحيح.. ثم قال:

- وجودكِ لديهم مشكلة.. كم هي غبية سلوى بتصرفها هذا.. بالتأكيد أن أهلك لن يتوقفوا عن البحث عنكِ.. لذلك عثورهم عليك يعد خطرا على العصابة.. وقد تكون سبب نهاية وجودهم.. استحالة أن يتركوكِ بسهولة..

تحدثت بصعوبة متحديةً تشوه لساني:

- لم أفهم شيئاً.. ماذا تقصد؟

رفض مواصلة الحديث, ثم قال وهو على عجلةٍ من أمره:

- راقبي ماذا أفعل أنا والأطفال, وسوف تفعلين مثلنا تماماً بعد دقائق..

تغيرت إشارة المرور الى اللون الأحمر.. ثم انتشروا بسرعة بين السيارات، وكأنهم أسماك صغيرة تخترق الأمواج..

يطلبون المال من قائدي المركبات قبل أن تضيء الإشارة باللون الأخضر.. ثم يعودوا ركضاً إلى الرصيف!

فعلوها أمامي مرتين.. وفي المرة الثالثة طلب مني يحيى أن أبدأ بالانخراط معهم!!

لم أصدق أن الأطفال المساكين المتسولين الذين كنت

أشاهدهم من وراء زجاج سيارة والدي.. سوف أكون هذه المرة بينهم ومعهم!

لم أتقبل طلب يحيى أبداً.. لذلك رفضت وأنا غاضبة..

فاشتاط غضباً هو أيضاً وبدأ يهددني بإخبار سلوى..

لكنني كنت عنيدة.. ولم أملك إلا أن أبكي وأصرخ بقوة..

ما ساعد ذلك على لفت أنظار المارة..

فخاف من حصول مشكلة بسببي.. فأمر مسرعاً الأطفال بالتوقف والعودة إلى المنزل فوراً.. ثم قام بسحبي من يدي اليمنى وساعده طفل آخر كان يمسك يدي اليسرى..

ونحن في طريقنا للعودة..

كان أكثر ما يشغلني هو حال عائلتي..

كنت أفكر كيف هو وضعهم.. كيف مرت عليهم هذه الأيام من دوني.. اقتربنا من انتهاء الشهر.. ليس بالسهل عليهم..

هل ينامون؟ أم يجبرهم أرق التفكير والقلق والفقد على النوم..

حزينة أنا عليهم.. أكثر من حزني على حالي..

وصلنا البيت بسرعة..

دخلنا البيت وتفاجأت سلوى وكذلك زوجها من عودتنا مبكراً

على غير العادة..

أخبرهم يحيى بما حصل وبأنني السبب في ذلك..

ثار جنون الرجل.. فقام بضربي مباشرة ضرباً مبرحاً..

كان يصرخ عليّ بكلمات باكستانية.. لا أفهم منها شيئاً..

كنت أتألم وأصرخ وأطلب منه التوقف..

ولاحظت أنه لا يتوقف من توبيخ سلوى وضربها على كتفها.. كما لو أنه يلومها.. لأنها هي من قامت بخطفي وإحضاري الى بيته.. يبدو أنه يفضل الأطفال الأجانب..

حتى قام بإدخالي للغرفة ودفعني بقوة.. ثم أغلق عليّ الباب.. وواصلت البكاء وأنا مكسورة القلب والحال..

كرهت يحيى ذلك اليوم بشكل لا يوصف.. فهو من تسبب

لي بهذا الموقف السيئ..

قرابة الساعتين حاولت فيها تهدئة آلامي..

حتى دخلت عليّ العجوز سلوى لتُنفِّس عن غلها تجاهي..

وتكمل ما بدأه زوجها الحقير..

كانت عنيفة معي.. تضربني وتهددني.. وتطلب خضوعي..

وليس هناك أكثر ألماً من الضرب على الألم نفسه..

كنت أريدها أن تتوقف وتبتعد.. لذلك كنت أهز رأسي بالموافقة.. وأصرخ بأنني سأفعل ما تطلبه..

وعندما يأتي الصباح ويحين موعد الذهاب مع الأطفال..

كنت أعاود تكرار مسلسل البكاء والنواح والصوت العالي مرة أخرى..

ويتم إخراجي بالقوة.. ويعيدني يحيى من منتصف الطريق..

بلا فائدة.. تكرر ذلك ثلاث مرات في أيام متباعدة..

عنادي هذا جعل الزوجين في حالة بركان من الغضب..

وبعد فترة قصيرة من التوتر الذي ساد البيت بسببي..

أذكر تلك الليلة جيداً..

التي كان فيها الأطفال ضحية غضب سلوى وزوجها مني!

عادوا بعد يوم منهك..

قاما بضرب الأطفال بشكل جماعي بمن فيهم يحيى..

أفجعني صراخهم وبكاؤهم وتوسلاتهم من وراء باب الغرفة التي تم احتجازي كالعادة بداخلها.. وبدأت الرعشة بالتوغل داخل عظامي..

قلبي ارتجف.. وشعرت وكأنه جهاز كهربائي هزاز..

قد تنتهي بطاريته في أي لحظة..

حتى فُتح الباب عليّ..

إنها سلوى.. تقف وفي يدها عصاها!

رأيت الشر يتطاير من عينيها.. عندها كادت تنقطع

أنفاسي.. كانت أشبه بالوحش المجعد الغاضب..

الذي انتفش شعره فجأة.. معلناً الخطر والعداء!

ضعف الإضاءة في الغرفة.. جعل منظرها أكثر رعباً..

شهقت وانخرطت في البكاء.. وبدأت أتراجع إلى الخلف..

فالبكاء.. هو سلاحي الوحيد القوي الذي أملكه..

وقبل أن تتقدم تجاهي..

سمعنا جميعاً صوت طرق باب البيت بقوة وبشكل متتابع!!

استدارت سلوى وتوجهت نحو زوجها الذي توقف عن

ضرب الأطفال.. وقام بفتح الباب بحذر..

كان رجلاً من نفس جنسيتهم!

يصرخ بقوة ويخبره وهو مرعوب شيئاً ما..

ثم هرب!!

طلب الرجل المسن من يحيى بأن يخرج الأطفال بسرعة من البيت.. وأن يهربوا!!

صرخ يحيى على الأطفال وهو يقول محذراً:

- تفرقوا.. مداهمة أمنية(3) قادمة إلى الحي!

توجهت سلوى نحو غرفتها وأحضرت حقيبتين..

حمل زوجها واحدة.. وحمل الفتى يحيى الأخرى..

وأمسكتني سلوى بيدها بكل قوة وبيدها الأخرى ابنتها..

وتتبعنا شقيقة زوجها أيضاً..

ثم خرجنا نركض من البيت من دون مقاومة مني!

الصدمة لم تجعلني في كامل تركيزي..

شعرت منها وهي تمسكني بقوة.. وكأنني أهم طفلة لديهم

من بين كل هؤلاء الأطفال..

صدق يحيى.. فعثورهم عليّ.. يعني دمار تجارتهم ومستقبلهم بالبلد.. يبدو أنني وبال عليهم!

هربنا جميعاً..

إلى خارج الحي العشوائي قبل وصول رجال الأمن..

كنا نركض وسط الممرات الضيقة والظلام في كل مكان..

لا أذكر أي شيء من ذلك الهروب.. لم يعلق في ذاكرتي سوى بعض الأنوار الخافتة القليلة جداً, التي كانت تعتلي بعض أبواب المنازل الشعبية يميناً ويساراً..

ركضنا كثيراً حتى وصلنا إلى سيارة صغيرة.. كانت تنتظرنا في نهاية الممر.. ولم تمر سوى دقائق حتى وجدنا أنفسنا خارج الحي..

أوصلتنا السيارة إلى منزل في أحد الأحياء البعيدة..

لأحد أصدقائهم من نفس جنسيتهم أيضاً.. كانت سلوى وزوجها غاضبين جداً وخائفين..

فجأة ونحن في الداخل رن الهاتف المحمول..

لم يصدق الرجل المسن ما سمعه.. حتى انفجر غضباً..

كان يحدِّث المتصل بلغة عربية مكسرة.. ثم أنهى المكالمة وطلب من سلوى وشقيقته الانتظار برفقة عائلة صديقه, ثم أشار إليّ وقامت هي بالقبض على معصمي بقوة.. ثم تحدث مع يحيى قليلاً وغادر وحده مستعجلاً..

جلسنا وجلس إلى جانبي يحيى.. سألته بصعوبة وكان يفهم بعض حديثي:

- ماذا يحدث؟

أخبرني بصوت خافت:

- معظم الأطفال وقعوا في قبضة رجال الأمن والكثير من مخالفي الإقامة.. حتى المنزل قاموا بتفتيشه.

- ولماذا أنا هنا؟ لماذا لم يتركوني أهرب مثلما تركوا الأطفال؟

نظر إليّ بعدما ابتسم، ثم قال:

- كلهم أطفال من جنسيات أجنبية.. إلا أنتِ.. سعودية!

- ماذا يعني ذلك؟

- سبق وأن أخبرتكِ.. العثور عليكِ.. يعني العثور عليهم!

لقد حفظتِ وجوههم.. وربما سوف تخبرين الأمن عنهم..

بخلاف الأطفال الأجانب.. قد يصمتون ويتم ترحيلهم.

شعرت حينها بأن إمكانية عودتي إلى أهلي صعبة..

فأنا بذلك العمر الصغير.. كنت أجبن من أن أهرب متجاهلة

تهديداتهم بحقي..

أن تهدد طفلة.. فكأنك بالضبط.. تهدد وردة..

تخيل أن تشاهد شخص يهدد وردة!

هل هذا يعد منظراً لائقاً قد تتقبله نفسك؟

لا أعتقد..

مرت فترة أعتقد أنها قرابة الأسبوع..

في تلك الأيام.. كان يحيى يخرج برفقة الرجل المسن صباحاً.. ولا يعودا إلا عصراً.. كنا نأكل وجبة واحدة فقط..

حتى أتى ذلك اليوم الذي شاهدت فيه أربعة أطفال من المجموعة نفسها التي كانت تعمل معهم.. يسلمون المال للرجل.. على ما يبدو أنهم ما تبقى من الناجين..

تقلص دخلهم كثيراً.. فقد كان المال يأتيهم سابقا من قرابة خمسة وعشرين طفلاً.. وأصبح فجأة يأتيهم من أربعة فقط!

هذه المشكلة جعلت العجوز سلوى تتضايق من وجودي

دون عمل.. فأنا عالة عليهم.. أحصل على الطعام حتى وإن كان قليلاً وسيئاً.. لكن من دون مجهود..

وكان زوجها يضربها كلما تحدثت عني.. أو تعدت عليّ..

لأنها سبب وجودي بينهم..

لم أكن أعلم ما يدور..

حتى أتى ذلك اليوم الذي أخبرني فيه يحيى.. بخبر صادم!

أخبرني بأن سلوى وزوجها قد قررا أن يذهبا إلى جهة بعيدة جداً.. حتى تهدأ الأمور.. ومن ثم يعودا إلى مكة بحجة العمرة باسمين جديدين!!

لم أفهم ما كان يقصده، ولكنني قلت له بغباء.. بعد تسرب الفرح إلى داخلي قليلاً:

- إذاً سوف يعيداني إلى أهلي؟

أجابني بسخرية:

- أنتِ أول المغادرين برفقتهما.. بل أهمهم..

تلاشت بوادر الفرحة سريعاً وكأنها لم تكن.. لم أستوعب

ما قاله لي.. وكعادتي بكيت.. وكان يطلب مني السكوت..

إلى أن دخلت سلوى أثناء حديثنا.. وشدتني من شعري

وأحضرت سكيناً ووضعته على عنقي وتحدثت معي محذرة بأنها سوف تذبحني إن لم أكن مطيعة!

تمنيت حينها وأنا أبكي.. أن أشتمها بصوتٍ عالٍ..

لكن لساني المحروق.. لا يجعل أي كلمة تخرج بشكل مفهوم.. كنت أصرخ بشكل محزن.. ولكن لا فائدة..

كم هو مؤلم..

بأن تقول كل شيء يفور بداخلك.. ولكن بصمت..

ما اخطر ذلك على النفس..

إن أبشع أنواع الغضب.. هو الغضب بصمت!

كانت الأيام تمر بشكل ممل..

حيث كان يحيى يخرج للتسول والتجول صباحاً ويعود ليلاً..

تعجبت من حالته.. حتى أتت اللحظة التي كان فيها يجلس بالقرب مني.. سألته بعد جهد من إخراج الكلام:

- لماذا أنت هنا؟ أين أهلك؟

لم يعرني أي اهتمام.. كررت عليه السؤال وأنا أشرح له بيدي ما أريد أن يجيبني عليه.. ثم طلب مني أن أصمت..

لكنني كنت مصرة.. حتى تحدث غاضباً:

- ليس لديّ أهل هنا.. أهلي كانوا في اليمن..

- ولماذا لا تكون معهم؟ لماذا أنت هنا؟

- لا أريد أن أذكر شيئاً من ذلك.. أنت تزعجينني بهذه الأسئلة.. بل تؤلمينني..

لم أكن أقصد أن أجرح يحيى أبداً.. سألته لمجرد الفضول كأي طفلة في عمري.. تستغرب مما ترى وتسأل.. كي تدرك ما يحدث حولها..

لاحظ تغير ملامحي.. وكأنه تضايق من طريقة كلامه معي.. صمت قليلاً.. ثم تحدث:

- والدي سلمني لأحد المهربين.. مقابل ثلاثة آلاف ريال سعودي..

- مهرب! ثلاثة آلاف ريال! لم أفهم!

تنهد وهو ينظر إلى أعلى.. وقال:

- نحن عائلة فقيرة بشكل لا يوصف.. مكونة من أبي الرجل القاسي والشديد.. وأمي وست فتيات وأنا الولد الوحيد فقط.. لم يكن لوالدي المقدرة على توفير لنا ما نحتاج اليه من طعام.. أو حتى مستلزمات الدراسة.. لذلك كان يرفض

ذهابنا إلى المدرسة.. ويجبرنا على العمل ونحن صغار(4) كي نكمل الحياة.. لذلك، كان لا بد له أن يخضع لآخر الحلول الصعبة.. ذلك الحل الذي أجبر الفقر فيه الكثير من العائلات على الخضوع له في مدينتنا باليمن..

وهو التعامل مع أحد المهربين باليمن..

- وماذا طلب منه؟

- في البداية طلب منه والدي سلفة مالية.. ولكنه رفض وعرض عليه فكرة قذرة يستخدمها مع الكثير من العوائل الفقيرة هناك.. طلب منه أن يعطيه أحد أطفاله مقابل ثلاثة آلاف ريال.. كي يرسله إلى السعودية للعمل.. وبعد سنة من العمل هناك يكون قد انقضى الدين الذي على والدي.. واضطر والدي الى الموافقة بعد أن ضغط على نفسه وعلى أمي التي بكت كثيراً وتوسلت إليه.. لكن الفقر كان أقسى.. ووقع الخيار عليّ للأسف.. لأنني الذكر الوحيد..

أخبرني يحيى بأنه تم تهريبه برفقة العشرات من الأطفال عبر الحدود اليمنية - السعودية!

من طرق وعرة جداً.. لا يتحملها أحد.. أكثر من عشر ليالٍ صعبة وموحشة.. حتى وجدوا أنفسهم بالقرب من جازان.. ومن ثم انتظروا شهراً تخلله الضرب والإهمال من قبل

المهرب حتى تم توزيعهم على أصدقائهم داخل المملكة.. منهم من قُبض عليه ومنهم من فلت بأعجوبة..

كان يحيى أحد الناجين.. وصل إلى جدة ولم يصدق ما رأته عيناه من جمال المدينة وتطورها بشكل أخافه في البداية.. لكنه صُدم عندما علم أنه قد وصل إلى عصابة تسول.. التي يقودها هذا الرجل وزوجته.. وليس للعمل بعمل شريف - كما أخبر والده - ذلك المهرب القذر الكاذب الاستغلالي.. ولكن.. ليس هناك مجال للرجوع إلى الخلف.. لذلك تعلم منهم بسرعة وانخرط معهم كي يساعد والده على تسديد دينه وإعالة أسرته..

أخبرني بحسرة أنه أكمل سنتين في جدة.. ولم يعد إلى اليمن.. ولم يرَ أمه ولا أباه ولا حتى إخوته.. لقد تعوّد على الحياة هنا.. على التسول.. حتى أصبح مقرباً من رئيس العصابة.. كان يجمع المال ويسلمه إلى الرجل المسن كي يرسله إلى والده.. ولم يكن متأكداً إن كان المال يصل بالفعل إلى والده أم لا.. لكنه لا يملك غير ذلك الحل..

أحزنني كثيراً يحيى..

فسألته بحزن وحسرة على ما وصل إليه:

- لماذا لا تعود أو تتواصل مع والدك وأهلك؟

أجابني إجابة صادمة.. كانت كالصفعة:

- والدي الحقير؟ لقد علمت من أقارب يعملون هنا.. أنه قام بتزويج أخواتي جميعهن إلى رجال كبار في السن فقط من أجل المال.. وقام بتطليق والدتي لكثرة اعتراضها وعادت إلى قريتها البعيدة، وهي خاسرة كل شيء.. حتى أنا.. اكتشفت أنه كان يعلم أنني سوف أعمل لدى عصابة تسول!.. كان فقط يخدعني كي أذهب بهدوء..

لم أستوعب ما قاله يحيى.. هل يعقل أن يصل الأمر الى أن يبيع الأب ولده من أجل المال؟ ليس المال هو السبب المباشر.. إنه الفقر.. قهر الفقر والحاجة يجعل الإنسان في أتسع الظروف ويجبره على اتخاذ أبشع القرارات..

بل ويجعله يتحول من شخص طبيعي.. إلى كائن لا نتوقع بشاعة أفعاله!

تلك الليلة كانت آخر ليلة أتحدث فيها مع يحيى!

بعد يومين تقريباً وفي الصباح الباكر..

دخلت عليّ سلوى بأسلوب فج كعادتها..

وألبستني من دون نقاش ملابس باكستانية نسائية!!

ووضعت لي الكحل بشكل مكثف.. وبعض المساحيق

الخفيفة!

وطلبت مني أن أصمت وأرافقها بهدوء وإلا سوف تطعنني بقلم صغير حاد جداً.. هددتني به.. ثم وضعته في حقيبتها الصغيرة!

خرجت معها إلى الشارع.. كان زوجها ينتظرها بسيارة في المقعد الأمامي بجانب السائق.. وفي مؤخرة السيارة حقيبتان كبيرتان..

حيث طلب مني الهدوء.. وأن أنفذ ما يطلبانه مني دون شوشرة.. وإلا سوف يشوه وجهي!

كل تعاملهما معي بالتهديدات, ضغط نفسي رهيب لا تتحمله طفلة مثلي..

خفت كثيراً.. وشعرت برجفة داخلية انعكست على يديّ..

كنت أتساءل لماذا كل هذه التهديدات المتتالية فجأة؟

ولماذا ألبساني هذا اللباس النسائي الباكستاني؟

حتى وقعت عيناي على المرآة الأمامية للسيارة التي تنقلنا..

صدُمت!

لقد كنت أشبه ابنتهما كثيراً!!

ولن يلاحظ الفروقات.. سوى من يدقق لفترة طويلة!

كانت تختلف عني بأشياء بسيطة..

عيناها واسعتان.. وحاجباها كثيفان.. وشعرها طويل جداً..

لكنني أحببت شكلي الحقيقي, بالذات عندما ألبسوني

مثل لبسها, وأكثروا من وضع الكحل حول عينيّ..

ولكني لم أهدأ من الخوف..

مر الوقت ببطء.. حتى وصلنا إلى مطار الملك عبدالعزيز الدولي.. لم أشاهده من قبل.. كانت المرة الأولى لي.. شعرت بالرهبة!!

نزلنا وودعنا الرجل الذي أوصلنا.. أخرجت العجوز سلوى القلم الحاد مرة أخرى, وحذرتني وهي تنظر إليّ بغضب وبنظرات مرعبة.. بأنها سوف تقتلني طعناً.. إن تصرفت تصرفاً يزعجها!

وقام زوجها بتكرار التهديدات..

وخيّرني بين الهدوء.. أو القتل.. فما كان مني سوى بلع ريقي الذي عجز عن التجمع بفمي من شدة الخوف..

دخلنا المطار.. كنا نسير خلف زوجها وهو يسحب الحقيبتين.. وأنا لم أقفل فمي من الدهشة.. أسير وأنظر حولي..

وقفنا في أحد الصفوف، وقام الرجل المسن بترتيب كل شيء، وإنهاء الأوراق اللازمة بشكل نظامي!.. أعطى سلوى جوازين وأخذ هو جوازه وتقدم نحو مدقق المعلومات بالجوازات.. وأخبره بأن هذه عائلته!

طلب الجوازات وسأل الرجل عن صفتنا..

فأخبره.. زوجته وابنته.. نظر إلى الصور الشخصية بالجوازات.. شعرت بداخلي بعدم الراحة..

تصاعدت أنفاسي.. وتمنيت لو أنني أستطيع الحديث..

لكن إعاقتي بلساني تمنعني حتى من الجرأة على النطق..

شعرت سلوى بارتباكي.. فقبضت على يدي التي تمسكها بقوة.. ونظرت إليّ بنظرات حادة.. فهمت من خلالها تهديدها الصامت..

نظر إليّ الرجل الذي يمسك الجواز.. ابتسم لي..

ثم ختم الجوازات.. ومررنا بسهولة!!

لقد انطلت عليه الحيلة!..

حيلة الشبه البسيط الذي يجمعني بابنتهما..

لم أصدق ذلك! هل يعقل أنني مررت؟

فليس هناك ما يدعو الرجل للشك تجاه هذين القذرين..

الأوراق سليمة.. هذه مشكلة الأوراق.. للأسف..

لا تحمل سوى الكلمات.. لكنها لا تنطق بالحقيقة الكاملة..

ويستغل ضعاف النفوس أي ثغرة لتمرير خبثهم..

تساءلت مع نفسي.. كم طفل أو طفلة واجهوا الذي واجهته؟

أليست هناك حلول أخرى غير الأوراق تكشف ألاعيبهم؟

(5) جلسنا قرابة الساعتين بمقاعد الانتظار..

كنت فيها أراقب الجميع والحقائب الكثيرة..

وأنظر الى الطائرات المتوقفة خلف زجاج صالة الانتظار!

علمت حينها أننا ننتظر رحلة سفرا!

وقفت وبدأت بالتمتمة والصراخ بصوت منخفض تجاه سلوى, وأخبرها بأنني لا أريد.. وبدأت أردد كلمة (ماما)

ثارت غضباً عليّ.. ولم يتمالك زوجها نفسه..

حتى قام وصفعني على وجهي وأجلسني الى جانبه بقوة..

وقرص ذراعي بقوة وهو يهددني بالموت إن كررت تلك الأفعال.. كتمت بكائي الذي لم ينقطع..

وسط نظرات العديد من المسافرين من الجنسية الآسيوية الذين يشاركوننا الجلوس في صالة الانتظار.. لم يكترث أحدهم لي ولا لدموعي..

يجب أن أعترف.. بأنني كنت جبانة..

كلما تذكرت هذا الموقف في المطار.. سألت نفسي..

لو أنني تجرأت.. وهربت بسرعة وركضت باتجاه

أي رجل أمن.. لما وقعت في هذه الدوامة كلها!

ولكنني كنت خائفة.. بل مرعوبة..

لذلك.. لا تحضر مثل هذه الأفكار في هكذا أحداث..

لا تتحملها بنت صغيرة..

بعض المواقف المخيفة..

تُجبرك على خوضها.. رغبة بالانتهاء منها!

تشعر كما لو أنك أسير لأحداثها المفروضة عليك!

إن أصعب العجز.. أن تتمنى أن تعود حقاً..

ولكن.. لا تعرف أي طريقة تساعدك على العودة..

كل ما كنت أفعله.. ليس بتخطيط مني..

بل بتخطيط من قِبل الغير.. كنت خاضعة.. ومسيَّرة.. فقط

حضر موعد ركوب الطائرة.. كانت خطواتي ثقيلة..

ولساني المحروق أثقل من أي وقت مضى..

كلما رأيت رجل أمن.. تمنيت لو أنني أستطيع أن أحدثه..

ولكن حديثي لن يفهمه أحد بسهولة.. وفوق كل هذا.. نظرات سلوى التي لا تفارقني.. وقبضة يدها التي تكاد تكسر عظام ساعدي..

دقائق حتى وجدت نفسي على أحد كراسي الطائرة بجانب النافذة.. وعلى يميني سلوى وعلى يمينها زوجها الحقير..

كنت أقاوم دموعي وأمسحها بالشال.. وأصارع أنفاسي التي تحرك صدري للأمام بقوة.. وكلما أخرجت نفساً.. قرصت فخذي تلك اللعينة.. قرصة مؤلمة..

حتى قامت بإخراج قنينة ماء.. وأجبرتني على الشرب منها.. لقد كانت مخلوطة بمنوم!!

لم أشعر بأعضائي.. حتى اغتالها الخمول.. وغرقت في النوم!

نفس الطريقة التي خطفتني بها من أهلي.. عندما خدرتني بواسطة منديل كانت قد وضعت به مخدر «منوم»..

فعلتها معي تلك المرة.. بواسطة إجباري على شرب الماء..

ولكن هذه المرة.. لم تخطفني من أهلي.. بل خطفتني من وطني!

بعد ساعات لا أعلم عددها.. وعيت..

شعرت بخمول في جسدي.. كانت سلوى وزوجها نائمين..

حركت قدمي بصعوبة لثقلهما من مفعول المنوم.. ووقفت بهدوء على مقعدي, وشاهدت المقاعد الأخرى بالطائرة.. كان معظم المسافرين يغطون بالنوم..

ما عدا القليل منهم.. كل مشغول بما يخصه من أمور..

أحد الذين يجلسون في المقاعد التي خلفنا مباشرة..

سمعته يتحدث مع شخص الى جانبه..

عرفت من لهجته أنه مصري الجنسية!

هادئ الوجه.. ملتحٍ.. يرتدي قبعة دائرية بيضاء اللون..

فرحت جداً والخوف يتحرش بقدميّ.. نظرت إلى الحقيرين اللذين الى جانبي.. كانا لا يزالان يغطان في نومهما..

ثم نظرت إلى الرجل.. ونظر إليّ.. ابتسم بوجهي وأمسك يديّ وقبلها بكل طيبة.. تحدثت معه بصوت منخفض جداً وشفتاي ترتعشان:

- أرجوك ساعدني..

لكنه لم يفهم من حديثي ولا حتى كلمة واحدة..

سألني بصوت مرتفع قليلاً:

- ماذا تقولي يا صغيرة؟

نظرت والرعب يبطش بي نحو سلوى وزوجها..

لم يتحركا أبداً.. ثم أشرت إلى الرجل متوسلة بيدي بأن يخفض صوته..

استغرب من تصرفاتي.. ثم قمت بتكرار طلبي والإشارة إلى من هما بجانبي وأنا أقول ببطء والدموع تتجمع بعيني:

- أنا مخطوفة.. أرجوك ساعدني..

لم أستوعب حينها ما قام به ذلك الغبي!

اقترب بجسده من الكرسي ثم أيقظ زوج سلوى بحسن نية!!

التفت زوجها إلى الخلف ثم إليّ..

وفهم أنني كنت أحدثه! واستيقظت سلوى!

أخبرها غاضباً.. فقامت بإغلاق فمي بيدها بقوة.. ثم ثبتتني على جدار الطائرة جهة النافذة وأمسكت ذراعي وعضتني عضة قوية من دون رحمة.. صرخت صرخة قوية جعلت كل من بالطائرة يبحثون عن المصدر! رغم أنها أغلقت فمي كما أخبرتكم.. بكيت وما زالت تغلق فمي بقوة..

حتى اقتربت إحدى المضيفات ووصلت إلينا..

عندها ضمتني سلوى إلى صدرها.. ووضعت على وجهي شالها.. وتحدثت مع المضيفة وهي تضحك بلغتهم الباكستانية.. ثم ذهبت المضيفة..

أبقتني على صدرها قرابة الدقائق الخمس كي لا أخرج أصواتاً.. كان صدراً لا يحمل أي إحساس بالحنان.. وكأنه صدر جهنم..

دفعتني إلى مقعدي وهددتني مرة أخرى بأنني لو كررت تلك الأفعال.. فإنها سوف تقتلني فعلاً!

بقيت ساكنة أحاول مداراة صوت بكائي وأمسح دموعي..

ويدي اليسرى تغطي مكان العضة باليد اليمنى..

التي كانت ينزل من تشققاتها بعضاً من الدم!

ثم نظرت نظرة سريعة من الفراغ الذي بين المقعدين نحو الرجل المصري.. لم يبد أي ردة فعل متعاطفة معي!

فقدت الأمل حينها.. واقتنعت بأن محاولاتي ليست سوى مضيعة للوقت.. لن أستفيد منها سوى الضرر الجسدي والنفسي.. لذلك.. قررت الهدوء.. حتى جاء موعد الطعام.. وشكرت ربي بأنهما لن يمنعاني منه..

التهمت كل ما كان يحمله الطبق.. وعدت للنوم من الإرهاق..

استيقظت خائفة..

بسبب صوت ضرب عجلات الطائرة بالأرض..

لقد وصلنا باكستان!

وصلنا إلى مدينة تسمى (إسلام أباد(6))!!

ولا أدري ماذا سوف ينتظرني!

رسمياً.. أنا نحو المجهول!!

عادت قبضة يد سلوى الخشنة للالتفاف حول معصمي كالأفعى.. واستمر الإحباط يلازمني ويتصاعد شيئاً فشيئاً..

نزلنا من الطائرة.. الشمس تشير إلى أننا تجاوزنا

وقت العصر.. فكان الجو حاراً بعض الشيء..

وكان بالنسبة لي.. كل شيء مختلفاً!

اللغة الغريبة التي لا أعرفها.. وجوه الناس التي تتسابق للنزول من السلم.. أشكال رجال الأمن.. وحتى رائحة الهواء..

لم أعتد على هكذا تفاصيل مختلفة..

ولم أصدق هذا التغيير.. ولكنه حصل.. حصل للأسف..

دخلنا إلى المطار..

كان مزدحماً.. وأصوات البشر عالية جداً.. أصواتهم جلبت لي التوتر.. وقفنا في طابور ختم الجوازات..

كانت بالنسبة لي هي الفرصة الأخيرة للحياة..

لعلهم يكتشفون أمري.. ويعيدونني إلى بلدي قبل أن أعبر..

اقتربنا شيئاً فشيئاً.. وحضر دورنا..

بكل بساطة ومن دون تدقيق واضح.. تم ختم الجوازات والسماح لنا بالدخول!

مررت نقطة التدقيق على الهويات..

بشخصية ليست شخصيتي وباسم ليس اسمي..

وبجنسية ليست جنسيتي.. وبلسان معطوب..

كل هذا حصل.. بشكل رسمي لا يحمل أي مخالفات!

لقد دخلت رسمياً إلى المجهول!!

استقبلنا أحد أقاربهم بسيارته..

أذكر أنها كانت رحلة برية شاقة ومملة حتى وصلنا إلى منزلهم!

لا أعلم بأي مدينة كان.. لكنه كان منزلاً بسيطاً جداً..

للأسف لم أهتم بأسماء المدن ولا القرى التي مررنا بها..

كان لا يعلق بذاكرتي.. سوى ما تلتقطه عيناي.. ليس غير ذلك.. فكل ما كان يهمني كطفلة.. هو أنني..

متى سوف أعود؟

كانت معاملتهم لي في منزلهم المزدحم..

من أسوء ما يكون..

حيث كانوا يجعلونني أساعد النساء في الطبخ وغيره..

ولا يسمحون لي حتى بالحديث أو اللعب مع أطفالهم..

وكنت أتساءل مع نفسي.. إلى متى هذا الحال؟

لن تصدقوا لو أخبرتكم بأنني بقيت معهم على هذا الحال..

قرابة الأشهر الخمسة!!

فيها من التعنيف واليأس والعمل ما فيها مع فتيات عائلتهم..

لقد كنت مقهورة جداً من هذا الروتين المقزز..

حتى حدث ذلك الحدث الجذري!

دخلت علينا العجوز سلوى بعد العصر تقريباً..

وطلبت مني أن أتجهز في أبهى حلة!

وأمرت إحدى الفتيات بأن تساعدني..

كان تجهيزاً جميلاً على الرغم من بساطته..

أجمل ما فيه رائحة ذلك الورد الناعم الذي وضعوه حول عنقي..

سألت إحدى الفتيات بلغة عربية مكسرة كما تحدثني سلوى..

لكنها لم تفهم كلامي.. تخيلوا أنني لا أتحدث معهم سوى بلغة الإشارة البسيطة.. والتي نادراً ما يفهمونني من خلالها..

ساعة تقريباً حتى تجهزت..

دخل زوجها المسن.. نظر إليّ بنظرات مخيفة!

لم أخشَ نظراته طوال وجودي معهم مثل هذه المرة!

ابتسم.. ثم اقترب مني, وسحبني من يدي..

وسرت معه من دون أي مقاومة..

كان يسير بسرعة، وكنت أرفع اللباس الباكستاني الذي ألبسوني إياه كي لا يسقطني.. ولكي لا يسقط أيضاً الشال من على ظهري.. فأعدله مسرعة بيدي الأخرى..

حتى وصلنا إلى خلف المنزل!

كان هناك حصير خشن مفروش.. وجدار المنزل يعكس الظل عليه.. ويجلس في آخره.. ثلاثة رجال!

توسطهم رجل يقترب من الخمسين سنة.. طويل اللحية.. يغطي رأسه بعمامة.. ويحمل السواك!

ضحك كثيراً عندما شاهدني.. وردد بحماس:

- ما شاء الله.. ما شاء الله..

أخبرني بأن هذا الرجل يُدعى أبو الفاروق.. أفغاني الجنسية!

تحدثوا جميعهم.. ثم أخرج أحد الرجال الثلاثة..

جوازا جديدا وسلمه للوغد زوج سلوى..

نظر إليه وهو مندهش ومستغرب.. ضحك فرحاً..

ثم جعلني أشاهده لثوانٍ.. وقال لي ببساطة.. اسمك إيمان!

كان يحمل صورتي!.. أو بشكل أدق.. صورة ابنتهما!

علمت بعد ذلك أنه جواز أفغاني.. استخرجه لي بطريقته الخاصة..

ثم أعاد للرجل الجواز.. وقام أحدهم بإخراج كتاب من

حقيبته.. وطلب من زوج سلوى التوقيع.. ووقع ثم تسلم

من الرجل الخمسيني أبو الفاروق مبلغاً من المال..

وقاموا بمصافحة بعضهما.. وهم فرحين!

حدث كل هذا.. في قرابة العشر دقائق فقط!

ثم سلمني لهم.. بدأت في البكاء كعادتي.. أصرخ وأرفض من أحدهم لمسي.. وسط صراخهم عليّ جميعاً وكأنهم يقودون نعجة نحو المسلخ!

أرغموني على ركوب سيارتهم الكبيرة بعض الشيء في الصندوق الخلفي المغطى.. ولم يجعلني أتوقف على البكاء..

سوى رؤيتي لفتيات وفتيان يقتربون من عمري!

يجلسون بنفس المكان! قرابة الثمانية أطفال..

كانوا متسخي الثياب, ومغبري الشعر والوجه..

ينظرون إليّ بصمت.. والحزن قد احتل ملامحهم الطفولية..

ثم تحركت السيارة.. بعدما انتقل إليّ صمتهم من دون أن أشعر.. ولكن دموعي لم تتوقف..

علمت حينها وأيقنت.. بأن ذلك القذر المسن وزوجته اللعينة سلوى.. قد باعاني!!

لقد كان آخر يوم أراهما فيه.. من بعد شهور طويلة من الاختطاف..

سارت السيارة القديمة على طرق متعرجة.. وسط ذلك الجو الحار.. وبقيت على حالتي وقتا طويلا..

حتى رأيت أن

كل الأطفال قد خلدوا إلى النوم بسبب الإرهاق وغروب الشمس.. فغفوت مجبرة بينهم..

نومة عميقة وطويلة بعض الشيء.. لم تكن مريحة..

ولم يوقظني منها سوى أصوات الأطفال.. كانوا يتحدثون مع بعضهم.. كان الجو مظلماً.. حاولت النظر من بين بعض الفتحات.. فلم أستطع رؤية أي شيء.. من شدة الظلام.. نور السيارة فقط كان في الأمام..

سألتهم بالإشارة إلى أين متوجهين..

فما سمعت منهم سوى كلمة مكررة: أفغانستان!!

معقول!!.. أعلم أنها دولة ولكنني لا أعلم أين موقعها..

لم أصدق ما أنا عليه.. في كل مرة أتفاءل بالعودة..

أجدني أبتعد أكثر!.. وأصبح في وضع أخطر!

لا أعلم كيف تجاوزنا الحدود.. ولكنها حتماً كمثل الطريقة التي أخبرنا بها يحيى سابقاً.. عندما تجاوز الحدود اليمنية -السعودية!.. بطرق غير شرعية.. حمدت الله أنني كنت نائمة وقتها..

لا أصدق!.. لقد دخلنا إلى أفغانستان!

استمر هذا الوضع حتى وصلنا إلى منزل غريب..

مكون من دور واحد وبه فناء كبير جداً.. مسور بطوب وأسمنت..

أدخلوا السيارة الى ذلك الفناء.. ثم أنزلونا بقوة كالبهائم..

أمروا الأطفال جميعهم بالدخول إلى غرفة خارجية بالقرب من أحد الجدران البعيدة.. وأغلقوا الباب عليهم..

وبقيت أنا وحدي أراقب المشهد بعدما رفضوا دخولي معهم!

تمدد الرجلان على فراشهما الذي وضعاه أمام الباب لحراسة الأطفال.. ومن دون أن أنتبه.. حملني الرجل الخمسيني بقوة على كتفه.. كما يحمل أرنباً صغيراً!

بعدما أمسك بإحكام يديّ وقدميّ.. وتوجه نحو غرفة خارجية ملاصقة للمنزل!

أذكر أنني صرخت بقوة غير طبيعية.. حتى شعرت كما

لو أن حبالي الصوتية قد انصهرت.. لم ينزلني من على كتفه.. إلا على سرير!!

كان في وسط غرفة ضيقة ويكثر بها الغبار..

ثم أغلق الباب علينا بالمفتاح!

بكيت وحاولت الهروب ولكن لا مفر.. كان يضحك وتجاعيد وجهه تتشكل على شكل شيطان مرعب.. أسنانه الصفراء.. فاقع لونها!.. منظر بشاعته.. استحالة حتى وصفه بالكابوس..

أشار إليّ بيديه الاثنتين.. بعدما وضع السبابتين بجانب بعضهما..

وبدأ بتحريكهما وكأنه يريد أن يوصل معلومة لي..

كان يحدثني بالإشارة لأنه لا يجيد لغتي العربية..

فكان يحاول وهو يبتسم ويردد كلمات..

حتى سمعته وسط ارتفاع صوت بكائي وهو يقول مكرراً:

- زواج.. زواج!

هنا أصابتني الهيستيريا!!.. وقمت بالركض يمنياً ويساراً محاولة الخروج.. لكن الجدران أقوى من جسم طفلة لم يتجاوز عمرها الثلاثة عشرة عاماً تقريباً..

أمسك بي بسهولة.. وسط مقاومتي.. حاول أن يجامعني!

ولكنني كنت أشرس مما أتوقع..

قوة مفاجئة حلت عليّ.. لا أعلم كيف حصل ذلك..

قاومت كما لو أنه الموت يريد أخذ روحي وأرفضه..

لم يعجبه ذلك.. فثار غضباً وضربني.. فارتفع صوت بكائي أكثر..

حتى تركني.. جلس على الكرسي وهو يشتمني..

والإرهاق واضح على وجهه من تعب الطريق الطويل..

لقد أفسدت ليلته.. كما أفسد زينتي وملابسي..

فما كان منه إلا أن يتمدد وأعطاني ظهره وتغطى باللحاف..

ثم خلد إلى النوم!

شعرت حينها بأنني نجوت.. ولم أتوقف عن البكاء المتقطع..

فلا أدري ماذا سوف ينتظرني في اليوم التالي معه!

بقيت سهرانة.. واستمر هو في نومه..

ولم يوقظه سوى صوت أذان الفجر..

الذي ردده أحد أصدقائه في الخارج.. فقام وكأنني لم أكن بجانبه.. ثم خرج لكي يصلي صلاة الفجر معهم!!

بقيت على حالتي.. أبكي وأبكي وأبكي وأدعو ربي بالنجاة..

إلى أن شعرت بضوء الشمس يداعب خدي..

ثم انهال على مسامعي فجأة صوت!!

أصوات أغنام!

تحركت ببطء وحذر.. واقتربت من النافذة الحديدية..

أبعدت قطعة القماش التي وضوعها كالستار.. ثم نظرت..

كان الفناء ممتلئا بالمواشي!

وكانت هناك سيارات كبيرة, يدفع أصحابها المال

لأبي الفاروق.. ثم يقبّلون يده ومن ثم يتم تحميل بعض

من الأغنام.. علمت حينها أنه تاجر مواشي..

من طريقة تعاملهم معه.. علمت أنه شخصية مهمة..

بعد انتهائهم.. أعطى أحد رجاله المال في حقيبة..

ثم نظر نحو النافذة التي أقف خلفها.. وشاهدني..

فتوجه إليّ وهو يبتسم.. ركضت إلى آخر الغرفة بعد أن أخذت اللحاف وغطيت نفسي وأنا أرتعد خوفاً..

فتح الباب بالمفتاح.. ثم دخل.. كان يمسك بيده اليمنى

إبريقا فارغا.. وفي الأخرى كيساً به الكثير من الملابس..

حاول الاقتراب مني ولكنني صرخت باكية بصوت عالٍ..

غضب من تصرفي.. فقام برمي الإبريق بالقرب من قدميّ،

وكيس الملابس جانباً.. وأشار إلى الحمام الخارجي..

فهمت منه أنه يطلب مني الاستحمام..

انتظرت حتى تأكدت بأنه ليس هناك أحد.. سوى بعض الرجال الذين يراقبون تحركاتي عن بعد.. ثم ذهبت مسرعة إلى الحمام وأغلقت الباب الخشبي المتهالك عليّ.. بعدما أخذت الإبريق والملابس..

كنت أحتاج الى ذلك الاستحمام كي أطهر نفسي من رجس محاولات ذلك الوغد..

ملأت الإبريق وسكبت الماء على رأسي وأنا أبكي بحرقة..

لم أصدق أنني تزوجت في هذا العمر!

وبطريقة كهذه.. كنت أبكي وأنادي بصوت متقطع..

أمي.. أمي.. أريد أمي..

ولكن صيحاتي هذه.. كانت تصدر من بقعة مجهولة بالأرض..

لا أعرفها.. لا أعرف عنها سوى أنها بعيدة جداً عن وطني.. وحتى عن أذهان عائلتي.. وأذهان رجال الأمن الذين من المتوقع أنهم لا يزالون يبحثون عني لإعادتي إلى أهلي..

فمن سيخطر على باله منهم..

بأن ابنتهم خرجت باسم منتحل لجواز صحيح غير مزورا

ووصلت إلى باكستان؟ ومن ثم إلى أفغانستان!

وأصبحت بأوراقها الرسمية فتاة أفغانية.. تدعى إيمان!

وهي متزوجة.. استحالة طبعاً..

انتهيت من الاستحمام الطويل..

ثم عدت إلى الغرفة وأنا محبطة ومدمرة..

مر اليوم المؤلم.. ومرت بعده العديد من الأيام..

هذه طبيعة الحياة.. تمر الأيام.. الجميلة والسيئة..

تنتهي بانتهاء الليل.. ولا يبقى منها سوى الذكرى..

المحظوظ من تبقى له الذكريات الجميلة..

والمنكوب.. من تبقى لها الذكريات البشعة!

لا أعتقد أن هناك أبشع من ذلك اليوم الذي مررت به..

وأنا في الثالثة عشرة من عمري!

لم أفارق الغرفة أبداً.. حتى الطعام.. كان يدخله رجاله ويضعونه وراء الباب ثم يغلقونه..

وآخذه وآكله كله.. كنت أجوع بسرعة غريبة..

رغم انسداد شهيتي من كل شيء..

لم يكونوا بخلاء معي.. سوى بعدد الوجبات..

التي كانت واحدة فقط.. وجبة الغداء..

كانت دائماً تحمل الدجاج.. والأرز وكوب حليب وكوب ماء..

ما أزعجني حقاً.. هو أن هذه القائمة.. كانت يومية.. متكررة.. لدرجة أنني كرهت الدجاج.. حتى أنني كلما سمعت صوت الديك.. أشعر بلوعة.. ولكن ليس أمامي سوى استغلال تلك الوجبة الوحيدة..

ذلك القذر يغيب يومين ويأتي إلى الغرفة يوما فقط..

في اليوم الذي يتواجد به..

كان يدخل الغرفة ويلقي السلام وهو مبتسم..

ثم يخلد الى النوم من دون أن يلمسني!

وعندما يبدأ في النوم.. استحالة أن أستلقي بجانبه..

كنت أسهر وأنا مستلقية على الأرض.. وأقاوم النوم..

حتى يأتي الفجر.. كي يخرج للصلاة ومن ثم أستسلم للنوم فوراً..

ما عدا اليومين اللذين كانا يغيب فيهما.. فإنني لا أتردد من النوم طوال الليل..

وعند طلوع الشمس.. كنت أقوم بالجلوس عند النافذة وأراقب كل من يأتي ويذهب.. أجمل الأيام التي تسعدني.. هي لحظة تفريغ الأغنام في الفناء ومن ثم تصريفها لدى التجار..

كنت أشاهدها وأنا مستمتعة..

ولكن ما شد انتباهي.. وهو المهم هنا!

الأطفال!!

كانوا يخرجون عند اكتمال الشمس ويقفون صفاً واحداً..

ويتناولون فطوراً بسيطاً.. قبل أن تأتيهم سيارة في خلفها صندوق مكشوف يركبون فيه!

ثم يعودون قرابة المغرب.. ويسلمون الأموال إلى أحد الرجال الحراس في هذا المكان!

المشهد نفسه تقريباً الذي شاهدته وعشت تفاصيله في مدينة جدة!

هي عصابة تسول أخرى.. مقرها أفغانستان!

وقد يكون لهم مقر أيضاً في باكستان..

حيث يتواجد اللعينان.. سلوى العجوز وزوجها!

علمت حينها أنني قد وقعت بين أفراد عصابة دولية..

ولكن.. هذه المرة لم أكن عضوة في الفريق..

وإنما كنت أرقى من ذلك.. كنت..

حرم زعيم هذا التنظيم المعتمد على التسول!!

صدفة.. صدمة!!

قرابة الشهر.. وأنا أشاهد ذهاب الأطفال للتسول..

وكذلك تصريف الأغنام تارة أخرى..

تمنيت لو أنني أرافق الأطفال كي أشغل نفسي قليلاً..

وأن أستغل أي فرصة قد تسنح لي بالهرب..

ولكن كانت الحراسة مشددة عليّ والباب مغلقاً دائماً..

لا أخرج إلا ثلاث مرات متفرقة لقضاء حاجتي أو الاستحمام..

حتى أتى ذلك اليوم..

في إحدى الليالي الهادئة.. كنت ممددة على السرير..

أتأمل السقف.. والسرحان يلاطف ملامحي..

إلى أن تسللت إلى مسامعي أصوات ضرب طبل وضحكات!

قمت مسرعة باتجاه النافذة وأبعدت الستار..

لم أستوعب المشهد!

أنوار معلقة.. جلسة أرضية بها رجال.. جميعهم ملتحين!

يحمل كل منهم سلاحه.. وتوسطهم أبو الفاروق!!

يجلسون على شكل صفين متقابلين..

ومعهم رجلان يضربان الطبل بأسلوب جميل ومعه بعض الأصوات شبه الموسيقية لا أعلم مصدرها..

والصدمة التي لم أتوقع مشاهدتها..

ست فتيات صغيرات في السن يرقصن بالمنتصف!!

في سني تقريباً.. يرتدين فستانين ملونة بألوان كثيرة..

لم يكن يملكن أجساد فاتنات بذلك القدر.. لكنهن يحملن بعض الجمال على وجوههن التي تزينت بالمكياج الكثير كما رأيت..

أجمل ما فيهن شعرهن القصير الناعم الذي يتحرك مع الرقص بإثارة!

سألت نفسي.. كيف لرجال ملتحين ويواظبون على الصلاة

يفعلون تلك الأفعال.. أليست محرمة لديهم؟

وواصلت التأمل في حركاتهم المضحكة.. كي أبعد الملل..

كان بعض المستمتعين بالمشهد.. يقفون للمشاركة مع الراقصات الصغيرات..

أحدهم كان يهذب لحيته وهو يرقص ويقترب من

أجسادهن..

في منظر مضحك بالنسبة لي..

دقّقت في وجوه الراقصات وسألت نفسي مرة أخرى وأنا بذلك العمر..

لماذا قبلن على أنفسهن هذا الوضع المخزي.. مع رجال بشعين لهذه الدرجة؟

أين أهاليهن؟ هل مررن بنفس ما مررت به؟

وبينما كنت أحدث نفسي وأنظر إليهن..

لاحظت شيئاً غريبا!

لاحظت بعض التصرفات الغريبة وهن يتراقصن!

ملامح الفتيات ليست طبيعية.. كذلك أجسادهن!

دققت.. وكررت التدقيق حتى تأكدت.. بعد أن صعقت..

لم تصدق عيناي ما شاهدته..

لم أتأكد من ذلك إلا بعد اقترابهن بعد انتهاء حفلة الرقص.. تجاه دورة المياه التي تقع بالقرب من غرفتي..

وسمعت أصواتهن.. لم يكنّ فتيات!!

إنهم فتيان!!

ويلبسون أزياء نسائية!

دهشتي جعلت فمي مفتوحاً وساكناً لا يتحرك, كذلك ملامحي..

أحد الفتيان الذين تجاوزوا بالقرب من نافذة غرفتي..

نظر إليّ نظرات مطولة.. وكأنه مستغرب!

رغم أنه أنا التي من المفترض أن تستغرب فقط..

فجأة أبعد نظراته.. وأسرع في خطواته..

بعدما صرخ عليهم أحد الرجال..

فرغوا من دورة المياه، ثم عادوا إلى نفس المكان..

تعالت ضحكات أولئك الرجال الملتحين ومعهم ذلك الأحمق أبو الفاروق.. منظم هذا الاحتفال المقزز..

حتى هدأت الضحكات وتحولت إلى خلافات محتدمة بعض الشيء..

انتهى النقاش بتقسيم الفتيان الراقصين على بعض الرجال!

ثم ذهب كل شخص مع الفتى في سيارته الخاصة..

بمن فيهم ذلك الحقير..

عدت إلى السرير.. وأنا لم أصدق ما شاهدته أبداً..

هذا المشهد الشاذ.. تكرر أمامي ثلاث مرات..

في كل أسبوع حفلة.. يحضر فيها كل مرة أصدقاء جدد..

يبدو من ملابسهم النظيفة والمرتَّبة بأن لهم مكانتهم أيضاً..

خصوصاً أنهم يحملون أسلحة..

مرت الحفلتان الأولى والثانية تماماً مثل العادة..

لكن الحفلة الثالثة..

كانت مفصلية للوضع الذي كنت عليه قرابة الشهرين!!

دخل أبو الفاروق عليّ الغرفة ليلاً.. ثم ابتسم..

وهو يكلمني قبل ذهابه للحفلة.. لم أفهم شيئاً..

كانت معه حقيبة صغيرة..

وضعها على الطاولة.. ثم فتحها وأخرج منها عمامة صفراء ولبسها أمامي ثم وضع بعض العطر سيئ الرائحة..

وعدّل موضع سلاحه تحت ملابسه..

ثم أغلق الشنطة بالرقم السري.. وتركها على الطاولة..

لمحت بداخلها العديد من الأوراق.. لكنني لم أتعرف على أي شيء..

غادر الغرفة.. بعد أن أغلق الباب..

ثم اندمج في الحفلة مع أصدقائه.. وجلست أنا بالقرب

من النافذة.. أشاهد تصرفاتهم كرهاً للملل..

فجأة.. نشب عراك كبير..

سببه اختلافهم على الظفر بأحد الفتيان الراقصين كي يكون شريكه بهذه الليلة!

وصل هذا الخلاف إلى تبادل إطلاق النار..

أول طلقة اخترقت صدر الفتى الراقص.. سقط أرضاً مدرجاً في دمائه!!

واستمر تبادل الطلقات.. ما خلّف سقوط بعض القتلى

وهروب البقية!

أصابني الرعب.. منذ بداية الشجار.. فهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوت طلقات الرصاص.. ركضت تحت السرير وأغلقت أذنيّ وعلا صوت بكائي وأنا أرتعد رعباً..

دقائق.. ووسط تواصل إطلاق النار..

كسر أحدهم قفل الباب من الخارج.. ودخل عليّ..

أخرجت رأسي لا إرادياً كي أشاهد من هذا..

لقد كان أحد الفتيان الراقصين..

ذلك الذي نظر إليّ مستغرباً في تلك الليلة الماضية!

أمسك بيدي وأخرجني من تحت السرير وتحدث بالعربية..

طالباً مني أن أتبعه بسرعة..

ومن دون شعور وقعت عيناي على شنطة أبي الفاروق الصغيرة.. فأخذتها معي من غير تردد..

وبالفعل.. تمكنا من الخروج من سور الفناء.. وما زال صوت إطلاق النار مستمراً.. ركبنا إحدى السيارات.. وأدار المحرك وهربنا.. كان الظلام دامساً.. بالكاد أرى يديّ..

وكان الفتى الراقص يقود السيارة بسرعة مجنونة..

مسحت دموعي وأصبح كل اهتمامي متى سيوقف السيارة هذا المجنون.. أصبحت أراقب الطريق..

وأنا أشعر بأن ما حدث كابوس يرفض النهاية..

بعد ساعة من القيادة المجنونة في منتصف الليل..

توقفنا.. ثم طلب مني الهدوء!

وشعرت بصوت نبضات قلبي تتعالى.. والخوف جعلني أتصبب عرقاً..

نزل من السيارة وذهب خلفها..

فتح الشنطة الخلفية لها.. وكنت أسترق النظر..

مستغلة بعضاً من ضوء القمر.. رغم صعوبة ذلك..

بدأ في تبديل فستان الرقص.. ثم بدأ بغسل وجهه

من المساحيق النسائية.. وعاد وركب السيارة..

قام بمد يده إلى الأعلى.. نحو الكشاف الضوئي المعلق

بسقف السيارة.. ثم أضاءه.. ونظر إليّ..

لقد كان..

يحيى!!

ما الذي يحدث؟ سألته مندهشة ومندفعة..

وأنا أشعر كما لو أنه حلم مضطرب:

- يحيى؟!.. ماذا تفعل هنا؟.. هل أنت هو أم أنت ذلك الـ...

- يكفي.. أنتِ ما الذي أوصلكِ إلى هنا؟

- دعك من قصتي.. يحيى هل أنا أحلم.. لا أستوعب أنه

أنت؟

رد غاضباً بعد أن أغلق ضوء الكشاف وبعد أن أدار محرك السيارة وانطلق:

- نعم.. نعم.. إنه أنا يحيى ولا تسأليني عن شيء.. جاوبيني كيف وصلتِ إلى هذا الرجل.. حسب علمي أنكِ غادرتِ مع سلوى وزوجها إلى باكستان كي لا يتورطان في قصة اختطافكِ.. ولكي يعوضان الخسارة المالية التي ألمت بهما بعد مباغتة رجال الأمن منزلهما.

لقد صدمني بكل ما تعنيه الكلمة.. أجبته بصعوبة وأنا أنظر إليه باستغراب وما زالت صورته في مخيلتي وهو يتراقص بجسده كالفتاة وبكامل زينته أمام الذكور.. وكان يفهم حديثي الصعب كعادته:

- نعم صحيح.. ولكن الحقيرين باعاني إلى تاجر أفغاني.. وعلمت أنهما زوّجاني إياه مقابل مبلغ مالي.. على أنني ابنتهما.. واستخرج لي جوازا جديدا أفغانيا بواسطة علاقاته الخاصة كما فهمت.. وأطلق عليّ اسم إيمان!

- الحقيران سلوى وزوجها لا يترددان باستغلال أي فرصة تأتي لهما من أجل المال..

- هل تعلم أين هما؟.. أو ماذا سوف يفعلان بعد أن تخلصا

مني؟

- سمعت من والدي أنهما سوف يعودان قريباً إلى السعودية.. عن طريق مؤسسة تجارية أو تأشيرة عمرة للحرم المكي..

- قلت والدك! هل رأيته؟

لم يجب عن تساؤلي.. كان متعمداً.. ولم أجادله حينها, حيث واصلنا التقدم بالسيارة وسط الظلام.. وفي كل مرة أسترق النظر إلى يحيى.. كان ينظر إليّ بسرعة ويطلب مني أن أدير وجهي.. بدا لي أنه مُحرج مني كثيراً..

أخبرني كي يشغلني عن النظر إليه.. بأن هذه السيارة للرجل الذي يعمل عنده.. وهو مَن قتل في الشجار الذي نشب بالفناء قبل قليل..

وعندما سألته لأي وجهة ذاهبين.. أخبرني بأنه سوف يضع السيارة على الطريق الرئيسي.. ومن ثم نركب أي سيارة كي توصلنا إلى بيت والده في منطقة قريبة بعض الشيء..

على الرغم من غرابة أمر يحيى ومن تقلباته المزاجية..

إلا أنني شعرت بالأمان معه.. فهو الوحيد الذي بقي لي من الذين التقيتهم في جدة..

وصلنا قرب الشارع الرئيسي.. أوقفنا السيارة جانباً..

وطلب مني أن يحمل الحقيبة نيابة عني..

وافقت لأن جسمي النحيل المرهق لا يقوى حتى على حمل نفسه..

طلب مني الانتظار وذهب من أجل الاتفاق مع أحد سائقي السيارات الكبيرة التي تنقل الفواكه..

وفعلاً.. اتفق بعد أن أعطاه المال لشخصين..

أشار إليّ بالاقتراب.. وركبنا بصعوبة في الصندوق الخلفي..

لم نكن وحدنا.. كان معنا العديد من الرجال..

بدأت نظراتهم تتوجه إليّ رغم الظلام الذي يحيط بنا..

ولا يفرق سواده سوى بعض الأنوار البسيطة التي تنير الشارع على استحياء..

وضع يحيى الحقيبة في حضني وجلس أمامي..

أعطاني ظهره كي يقطع نظراتهم تجاهي..

لم يخفف توتري.. سوى استنشاق رائحة المانجو الزكية..

التي ملأت صناديقها العربة.. تمنيت تذوقها.. ولكن يُمنع منعاً باتاً لمسها كما أخبرني يحيى..

ساعات متعبة لا أذكر عددها.. حتى وصلنا..

ساعدني يحيى على النزول.. بعد أن حمل الحقيبة..

وبدأنا في المشي.. باتجاه تجمعات سكنية في حي فقير..

كنت كالعادة.. لا أسأل عن اسم القرى أو المدن..

وهذا كان خطأ مني.. لأنني كما أخبرتكم كنت على قناعة للأسف.. وقتها بأن معلومات كهذه لن تفيد فتاة في عمري..

كنت فقط أحفظ بعض الأسماء التي ينطقونها أمامي..

فتعلقت في ذاكرتي.. حتى اليوم..

تجاوزنا الحي ومشينا كثيراً حتى تعبت قدمانا..

إلى أن وصلنا إلى أحد المنازل الصغيرة البسيطة المعزولة!..

طرق الباب.. ففُتح لنا بواسطة شخص.. كان وجهه مليئاً بالنوم..

فتح عيناه وكما لو أنه شاهد عدواً يكرهه!

صرخ بصوت عالٍ بلغة عربية هذه المرة فهمتها:

- يحيى!! ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا اليوم وبهذا الوقت بالتحديد؟ ومن هذه الفتاة؟

- أبي.. أمر خطير حصل سأخبرك به في الداخل..

صفعه بيده على خده صفعة جعلت جسدي يرتعش!

ثم أدخلنا وهو يصرخ علينا!

لقد كان والده.. فاجأنا باستقبال يليق بنا, لقد أوصل بداخلي الانطباع الأول لما ينتظرني معه من مفاجآت أخرى..

بدأ يحيى بحك خده المضروب وهو يتحدث باللهجة اليمنية مع والده ويخبره بكل شيء حصل.. الشجار الذي حصل, وسقوط القتلى بمن فيهم الرجل الذي يذهب ويعود معه يحيى في سهراته.. فهمت من ردة فعله والده.. بأنه على علم بما يقوم به ابنه من التشبه بالفتيات والرقص!

نظر إليّ والده.. ثم سأله عني.. وهو يضع يداه على رأسه من هول الصدمة التي خلفتها أخبار يحيى السيئة..

أخبره بأنني زوجة أبي الفاروق.. سعودية الجنسية.. وبأنني كنت معه في فريق التسول الذي يشرف عليه سلوى وزوجها في جدة.. وبأن القدر الأسود هو من أوصلني إلى هنا.. بواسطة انتحال شخصية لجواز باكستاني.. ثم بواسطة جواز أفغاني مزور..

لم يثر الرعب بنفس أبو يحيى أي شيء..

سوى ذكر ابنه لاسم أبي الفاروق!!

وكأنه ذكر اسم الموت أمامه!

لاحظت ارتباكه وارتعاده.. واصل صراخه على ابنه

وهو يردد ممسكاً برأسه:

- لماذا أتيت بهذه الفتاة إلى هنا.. سوف يقتلوننا جميعاً

إن علموا بما فعلته أيها الغبي!!

بعد جملته هذه.. شعرت بالرعب فعلاً..

بكيت وبدأت أترجاه بأن ينقذني وأن يعيدني إلى أهلي..

حتى صرخ عليّ طالباً مني السكوت..

ثم نظر إلى الحقيبة التي كان يحملها يحيى بعدما وضعها على الأرض.. سأله:

- ما هذه الحقيبة؟

- إنها للفتاة..

سألني والتوتر لم يفارقه:

- حقيبة رجالية كهذه لماذا تحملينها معكِ؟ وما بها؟

أجبته بخوف وبصوت منخفض وأنا أشير بيدي بجهلي

التام بالذي تحمله بداخلها:

- لا أعلم..

- لا تعلمين؟ إذاً هي ليست لكِ؟

تدخل يحيى عندها وقال:

- لا إنها لأبي الفاروق..

ارتبك كثيراً وازداد توتره.. وبدأ يضرب رأسه بكلتا يديه..

وهو يصرخ: لقد ضعنا.. لقد انتهينا..

ويحيى بقي صامتاً خائفاً من أي ردة فعل عنيفة..

مرت دقائق من الجو المتكهرب والمقلق..

حتى قرر الخروج وحده للسؤال عن الكارثة ومعرفة

ما حدث بالتفصيل.. وكيف عليه أن يتخلص مني بعدما وصفني بالمصيبة التي حلت عليه!

طلب من يحيى أن يعطيني الطعام وأن نبقى في المنزل

ولا نخرج أبداً هما حدث..

وقال لنا صراحةً: إن أي تهور قد تنقطع أنفاسنا بعده!

ثم حمل سلاحه وخبأه تحت يده.. ثم خرج وأغلق الباب

وراءه.. وحلّ الصمت المطبق بينا..

سألت نفسي بصمت.. هل أنا مصيبة فعلاً؟!

زوج سلوى كان مستاءً وخائفاً من وجودي..

والآن يتكرر هذا الأمر مع والدي يحيى!

ما الذي يجعلني أكون كل هذا في نظرهم؟

لماذا لا تتركونني وشأني إذاً؟

قام يحيى كي يسخن بعض الطعام..

وبدأت أنا في البكاء.. كان حملاً ثقيلاً ما مررت به تلك الليلة..

لم أتوقع يوماً أن أفقد حضن أمي.. وصوت أبي.. واللعب مع أختي الصغيرة.. وأن أعيش لحظات مخيفة وقاسية كهذه.. اشتقت لمدرستي التي أستطيع فيها اقتناء الروايات من مكتبتها التي أحب مع صديقاتي..

كم أعشق قراءة الروايات البسيطة حقاً.. ولكن.. يبدو أنني أصبحت أعيش أحداث رواية صعبة لم يسبق لي بقراءتها..

والدتي لا تفارق مخيّلتي.. كانت تخبرني كل صباح قبل ذهابنا للمدرسة.. وهي تضفر شعري الخشن قليلاً.. بأنني

سأتزوج من أمير يأتيني على فرس أبيض.. وبأنها هي من سوف توصلني إليه.. بعدما تجهز لي تسريحة شعري الخاصة بالملكات.. وكنت أبتسم خجلاً..

ولم يخطر على بالي أبداً.. أنني سأقع تحت لعنة مسن شاذ..

تحت مسمى الزواج.. ومن دون علم أهلي..

ما حدث لي سبب شرخاً عميقاً في شخصيتي للأسف..

وضع يحيى الطعام على الأرض.. خبز ومرق وبعض الخضار.. ولم أكن أرغب بأكل أي شيء.. لكن الجوع أحياناً يجبرك على مخالفة شهيتك المفقودة..

فتأكل من دون إحساس بالطعم.. فقط لتملأ معدتك..

أكلنا سوياً..

وطلب مني يحيى ألا أقلق.. حتى أتى على بالي سؤال..

كعادتي المتطفلة.. قاطعته وهو يتحدث:

- يحيى.. أخبرني.. ماذا تفعل مع والدك في أفغانستان؟

ولماذا كنت ترتدي ملابس نساء وتقوم بدور راقصة؟

شعرت باحمرار وجهه.. كان خجلاً من نفسه وغاضباً..

حتى أزاح بنظره جهة اليسار كي لا تقع عيناه بعينيّ..

وقال:

- والدي مهرب أطفال وسلاح.. يستغل الأطفال من كل الجنسيات.. خصوصاً أطفال اليمن لدينا..

يعمل على تهريبهم لعصابات التسول خصوصاً بالسعودية.. الأقرب للحدود.. ويهرب مختلف الجنسيات بين الدول الآسيوية والأفريقية أحياناً لاستخدامهم من قبل المقاتلين أو التجار.. سواء في الحروب أو في الجنس.. خصوصاً الأطفال اليمنيين..

الحقيقة لم أفهم شيئاً.. لكنني أذكر كلامه جيداً..

قلت له بعدما شعرت بتهربه من الإجابة:

- لا يعنيني كل هذا.. ما يعنيني هو أنت.. ما دورك هنا؟

ناداني باسمي.. فرفضت ذلك وأخبرته بأن اسمي يرتبط بشخصيتي الطاهرة.. ولن أسمح لأحد بأن يذكره حتى أعود عند أهلي.. لذلك.. ذكرته باسمي هنا.. بأوراقي الرسمية..

إيمان..

ابتسم.. وقال والخجل قد كساه متألماً:

- لكِ ما تريدين يا إيمان.. أنا هنا أقوم بدور الباشا بازي(7)

- نعم؟ ماذا يعني ذلك أخبرني؟

تلعثم قليلاً.. وتردد بالحديث.. ولكن إصراري عليه جعله يتحدث باختصار:

- والدي معي.. شخص مرعب.. وشديد.. ولا يعرف الرحمة.. ولكنه جبان مع الآخرين.. عندما وصلنا إلى هنا.. تورط مع أحد التجار غير الشرعيين في البلد.. وأجبره على أن يأخذني لإشباع رغباته مقابل نجاته..

- رغباته!!.. ماذا تقصد؟

- أعتقد لا داعي للشرح.. لقد شاهدتِ بعينيكِ كل شيء..

لم أصدق ما قاله.. فهمت أنه يقوم بأعمال غير لائقة.. وهذا التحليل السطحي أقصى ما قد تتوصل إليه فتاة بعمري..

سألته ببراءة:

- وكيف يقبل والدك بذلك؟ ولماذا تبقى معه؟

أجابني بحرقة:

- بعد حادثة المداهمة بجدة.. حضر والدي لكي يأخذني.. سافرنا بشكل نظامي.. انخرط والدي بالعمل مع أحد المهربين بعدما تعرف عليه جيداً من خلال تلبية طلباته.. وهو يكسب

المال هنا بعلاقاته القديمة التي كونها من عمله في التهريب.. لا تسنح فرصة يجني منها المال إلا ويسعى الى كسبها.. لذلك هو منبوذ لدى عائلته.. حتى والدتي لم تتحمله وذهبت إلى قريتها كما أخبرتك سابقاً.. وأنا ابنهما الذكر الوحيد التعيس.. أخبرني بأنه تزوج فوراً بعد مغادرة والدتي.. وكأن شيئاً لم يكن.. وكما ترين يا إيمان.. أنا مجبر على مرافقته.. فليس لي مكان آخر سوى معه.. لقد وصلنا إلى أفغانستان منذ مدة ليست بالقصيرة.. وسوف نعود كما أخبرني في أي وقت يراه هو مناسباً.

علمت بعد حديث يحيى أن مصيبته لا تقل عن مصيبتي..

ولكن الفرق بيننا أنني تعرضت للظلم من قِبل أغراب..

وهو يتجرع الظلم من قِبل أقرب الناس إليه.. والده!

مؤلم جداً.. هو حالنا.. في بلاد ليس لنا فيها أي شيء..

أنهى حديثنا الحزين دخول والده المفاجئ.. كان مبتهجاً..

ومن دون مقدمات سجد سجود الشكر وقام وهو يقول:

- لقد قُتل أبو الفاروق مع مجموعة من الرجال.. أصيب بطلقة في عنقه من بعد ذلك الشجار.. وهذا الشيء قد أزال نصف الخطر علينا..

الحقيقة فرحت.. كانت فرحة غريبة عليّ.. للمرة الأولى في حياتي أفرح لمقتل إنسان!!

وقلت في نفسي حينها.. يبدو أنني سأفقد إنسانيتي شيئاً فشيئاً

لو استمررت بوجودي هنا بين هذه الأشكال غير الطبيعية..

نظرت إلى يحيى وكانت ملامحه تعكس ما بداخله من فرحه.. خصوصاً أن سيده الذي كان يستغله لتفريغ عقده وملذاته

قد فارق الحياة أيضاً..

عندما يكتب سيناريو حياتك.. شيطان!

أحضر والد يحيى قطعة حديد صلبة.. وقام بكسر الحقيبة..

وبدأ بتفتيشها.. حتى وقعت عيناه على جواز أفغاني..

فتحه وكانت المفاجأة التي أسعدتنا جميعاً..

لقد كان جوازي الذي قام باستخراجه سيئ الذكر أبو الفاروق.. ومن خبرة أبو يحيى قال لنا إنه جواز شبه حقيقي..

الصورة التي كانت بالجواز ليست صورتي.. وأنما صورة ابنة سلوى.. لم تكن تشبهني لتلك الدرجة بهذه الصورة بالذات.. ولكن حتى هذا الشرير.. لم يلاحظ الفرق في الصورة بيني وبينها.. هكذا هي الصور الشخصية دائماً..

لا تظهر كما أنت بالطبيعة..

بعد مدة من التدقيق..

أخبرنا شيئاً مهماً ولافتاً يخص حقيقة الجواز!

وهو أنه على ما يبدو أن اسمي ومعلوماتي التي تخص اسمي الجديد (إيمان) هي لفتاة ميتة ولم يتم تسجيل حالة وفاتها رسمياً.. أحياناً بعض العوائل تدفن موتاها بطرق غير

رسمية.. وتبيع أوراقهم الرسمية ومقتنياتهم من أجل المال وهرباً من عذاب الفقر.. لم يقوموا سوى بوضع الصورة الشخصية.. وهذا ما جعله حقيقياً من ناحية البيانات..

والأهم أنه على الأرجح أن أبا الفاروق لم يوثق زواجنا رسمياً..

فعلاً.. مصائب قوم عند قوم فوائد!

سأله يحيى:

- ما الذي سوف نفعله الآن؟

رد عليه والده بعنف:

- اخرس يا غبي.. لا تتدخل أبداً كي لا توقعني في مصيبة أخرى.. سوف نبدأ العمل من الغد!

سأله يحيى مندهشاً وأنا صامتة أحاول فهم ما يقوله:

- عمل؟! عمل ماذا؟

- فتاة مثلها في بهذا العمر الصغير.. يكون الطلب عليها كبيراً.. ستكون خادمة لبعض البيوت التي سوف أحددها لها..

صمت يحيى وبادلني النظرات وهو عاجز!!

ولم أستوعب ما قاله ذلك الغبي.. حتى أخرجت الحديث

من داخلي وأنا محبطة قائلة:

- أرجوك يا عم.. أريد العودة إلى أهلي.. استحالة أن أعمل أعمالا شاقة كهذه.. أريد أمي فقط.. أرجوك..

كنت وقتها أحدث جداراً إسمنتياً.. لا يشعر.. ولا يفهم.. ولا حتى يعير لحديثي أي اهتمام.. حاول يحيى التدخل وإقناعه بأنني طفلة مختلفة عن باقي الأطفال الذين يعملون معه, وأن وجودي معه لن يجلب له الفائدة المرجوة..

لكنه لم يحرك ساكناً.. إلا عندما حرك يده وصفع يحيى على وجهه للمرة الثانية بكل برود.. ثم قال شيئاً مجنوناً صدمني بقوة:

- لن تكوني خادمة حقيقية.. سوف تكوني خادمة صورية!

الشقة التي سوف أتفق مع قاطنيها على عملك لديهم.. سوف تكون مهمتك الحقيقية فيها.. أن تحفظي مداخلها ومخارجها وممراتها الداخلية.. عدد الغرف.. مكان المطبخ.. عدد أفراد العائلة.. وموعد نومهم وموعد استيقاظهم وحتى موعد إفطارهم قبل خروجهم للدوام.. خصوصاً الرجل.. صاحب الشقة!

ماذا تتوقعون من ردة فعل فتاة صغيرة من هكذا طلبات؟

بالطبع حلت عليّ لحظة صمت، ونظرات تحديق في وجهه المستفز.. إلى أن انفجرت ردة فعل يحيى أمامي!

لقد سقط على الأرض وهو يتوسل والده:

- لا يا أبي.. أرجوك.. لا تفعلها.. لا تدخل هذه الطفلة في هكذا خطر كبير لا تستطيع تحمله!

نظرت إلى يحيى ثم نظرت إلى والده الذي طالبه بالصمت..

وكررت نظراتي تجاههما ونبضات قلبي الخائف ترتفع شيئاً فشيئاً.. سألت يحيى ما الذي يقصده والدك.. لكنه لم يجب عن تساؤلي.. واستمر بتوسل والده الذي ركله بقدمه بكل قوة وطالبه بالصمت مرة أخرى..

كنت أظن أن هروبي المفاجئ من تحت بطش أبي الفاروق..

هو طوق النجاة الذي أنتظره.. لكن يبدو أنني خرجت من حفرة.. وسقطت في حفرة أكبر..

يبدو أنني أمام شيطان.. قرر أن يكتب أحداثي القادمة!

في كل يوم يمضي.. أفكر في أهلي.. ويصبح أملي قليلا..

يختلف فيه أملي تماماً عن اليوم الذي قبله.. ويسكن الإحباط بداخلي.. وأطلب من الله لو أنني أحلم وأنتظر

والدتي أن توقظني من هذا الحلم اللعين.. لكنه للأسف كالعادة..

يكون كل ما يحدث حقيقة..

مر الوقت سريعاً بشكل لم أفهمه..

حتى أتى الصباح.. أذكر أنني نمت على الأرض حتى العصر, وكذلك يحيى الذي رفض أن يحدثني بسبب صدمته.. حيث اختار زاوية من الزوايا.. ونام مرهقاً..

أيقظنا والد يحيى وطلب منا أن نغسل وجهينا ونتناول

ما تبقى من طعام البارحة.. وحصل ما طلبه فعلاً حتى اجتمع بنا..

وأخبرني بأنني سأعمل خادمة يومياً من العصر وحتى العشاء عند عائلة أفغانية وضعها المادي جيد..

وسوف يوصلني هو ويحيى كل يوم ويأخذاني عند انتهائي

من العمل بعد صلاة العشاء..

وكرر عليّ قائمة المعلومات التي يجب عليّ جمعها!

ولم يسمح لي بمعرفة السبب.. قائلاً سوف تعرفين قريباً..

وهددني بأن أي محاولة غبية.. سوف تجعله يقتلني مباشرة!

قالها لها وعيناه تتطاير شراً..

دمعت عيناي وزادني خوفاً.. وسط تذمر يحيى الذي كان عاجزاً بشكل لا يوصف.. أحضر لي ذلك المجنون ملابس نظيفة يبدو أنها مستعملة.. كانت أكبر من حجمي قليلاً..

فكما يقول هذه العائلة لن تقبلني بملابس متسخة كالتي عليّ..

أخذت حماماً سريعاً ولبست ووضع لي الحجاب بنفسه..

وأصبحت جاهزة.. قال لي بعدما نظر إليّ بفرحة:

- أنتِ من اليوم.. الخادمة إيمان!

لم يفارقني الخوف.. فلقد كنت مقبلة على تجربة مجهولة..

فمن يصدق أن طفلة سعودية.. تعمل خادمة(8) في منازل عائلات أفغانية! وفي أفغانستان نفسها!!

ذهبنا.. ووصلنا إلى المنزل.. رفض أن يدخل معي..

حتى أنه منع يحيى بعدما اقترح أن يرافقني..

طلب مني أن أصعد للطابق الثاني من البناية وأضرب

الجرس الخاص بشقة رقم خمسة..

وعندما أخبرته بأنني لا أتحدث لغتهم.. أخبرني بأنهم يعلمون ذلك.. فالإشارة تكفي للخدم كي يقوموا بعملهم..

توجهت وحدي كما أخبرني وقدميّ ترتجفان..

حتى وصلت إلى الشقة المقصودة..

طرقت الباب.. ففتحت لي سيدة.. في الأربعينيات تقريباً..

ابتسمت لي.. علمت هي بأنني خادمتها.. وعلمت أنا بأنها ربة المنزل..

أشارت إليّ بالجلوس على كرسي خشبي في الصالة..

ثم ذهبت إلى الداخل..

بدأ الفضول لديّ يحرك عينيّ للنظر إلى أرجاء الصالة الصغيرة.. كفضول أي فتاة صغيرة..

كان الوضع مرتباً جداً.. ورائحة العطر جميلة..

وكذلك الطعام.. الذي تنبعث رائحته من المطبخ الذي يقع بابه أمامي مباشرة..

عادت السيدة وقدمت لي الغداء.. كوب لبن.. وصحن متوسط الحجم يحمل في وسطه الأرز الأصفر وقطع دجاج

مبهرة وبعض الخضار المقلي.. رائحته فقط تأسرك.. فكيف طعمه إذاً؟

فرحت كثيراً ولم أصدق عينيّ..

ثم وضعت الى جانبي بعضاً من المناشف والمنظفات الكيماوية..

طلبت مني بعد انتهائي من الطعام.. بأن أقوم بغسل الصحن والكوب.. ثم أشارت نحو أحد الحمامات..

فهمت أنها تريد مني أن أنظفه.. ابتسمت لها وأنا مشغولة البال مع صحن الطعام, وأشرت برأسي بالموافقة..

ثم هجمت على الصحن بشراهة.. قضيت عليه تماماً..

كان لذيذاً بشكل لا يوصف..

أفضل وألذ طبق تناولته منذ اختطافي..

وبالفعل، قمت بعد ذلك بتنظيف طبقي والاتجاه نحو الحمام والاجتهاد في تنظيفه بطريقة غير صحيحة.. فهذه كانت المرة الأولى التي أقوم بها بهكذا أعمال..

لاحظت ذلك السيدة.. ولم تغضب مني.. بل إنها تعاطفت معي لصغر سني.. وقامت بتعليمي كيفية استخدم الأدوات..

تعلمت بسهولة وبسرعة وقمت بالمهمة..

ثم أمرتني بترتيب بعض الأغراض والملابس..

وتنظيف الأرضيات.. وبعض الأمور الأخرى..

حتى شعرت بأن ظهري يكاد ينكسر..

قمت بكل ذلك.. وأنا مشغولة البال بطلبات والد يحيى الغريبة!

كانت الشقة سهلة وليست معقدة..

ثلاث غرف وحمامين ومطبخ وصالة صغيرة..

مرّ الوقت حتى اقتربت صلاة العشاء.. واقترب معها وقت مغادرتي..

فجأة.. أحدهم فتح الباب.. دخل علينا ضابط شرطة!

يرتدي زياً عسكرياً جميلاً..

وقبّل السيدة على خدها وكانت فرِحة بذلك..

ثم قدمتني إليه.. ووضع يده على يدي اليمنى بكل حنان وأعطاني علبة علك بالفراولة.. أخرجها من جيبه..

وهو يبتسم..

علمت أنه زوجها.. ثم ودعتهما وغادرت بكل هدوء..

لم أكن أتخيل أبداً أن تكون تفاصيل ذلك اليوم بتلك الطريقة المريحة والجميلة جداً.. تمنيت لو أنني أستطيع النوم عندهم..

ولكن كان يحيى ووالده ينتظراني عند نهاية الطريق..

ويجب عليّ أن أعود معهما..

ركبت السيارة وسألني والد يحيى مباشرة عن التفاصيل..

كان أشبه بالتحقيق.. وكنت أجيبه بكل شيء مجبرة..

حتى سألني عن أبنائهم.. وأخبرته بأنني لم أجد أحداً..

فكانت ردة فعله طبيعية، حيث قال:

- يبدو أن تحرياتنا صحيحة.. لقد أبعدهم إلى خارج البلاد.. كي يضمن سلامتهم!

ثم أدار محرك السيارة وغادرنا..

نظرت إلى يحيى والحيرة تكسو وجهي.. كان يتجنب النظر إليّ.. وحتى الحديث معي.. كان خائفاً من شيء ما مثلما بدا لي..

وصلنا إلى المنزل.. وخلدت الى النوم مباشرة وأنا مرهقة

جداً.. على أرض صلبة.. فليست لديّ وسادة ولا حتى لحاف..

كنت أتحسس بيدي على ظهري المتألم.. ولكنني كنت مرتاحة نفسياً بعض الشيء.. وأترقب الغد بلهفة.. كي أعود الى تلك العائلة الطيبة جداً.. بدلاً من الجلوس هنا وحدي..

في هذا المكان المتسخ.. وغير المريح..

تكرر الحال.. وكانت تلك الفترة هي الأفضل بالنسبة لي منذ وقت بعيد.. حتى شعرت بأنني نظيفة الجسد والرائحة على غير العادة..

حيث كانت تلك السيدة.. تسمح لي بالاستحمام إذا لاحظت أن ملابسي أو شعري متسخين..

طيبة جداً.. وكذلك زوجها الضابط.. الذي دائماً ما يبتسم في وجهي كلما رآني..

بدأت أشعر بتأنيب الضمير بعد خمسة أيام تقريباً من عملي لديهم.. وأنا أنقل المعلومات الى والد يحيى..

وتساءلت بيني وبين نفسي.. لماذا أنقل كل تلك المعلومات له.. لم أتعود على تلك الأفعال.. أمي علمتني العكس.. لكنني أطبق أفعالاً لم أتعلمها يوماً..

حتى وصلت بي تلك التساؤلات الصامتة..

إلى تساؤلات مهمة.. أهمها:

لماذا لا أستغل تواجدي لديهم.. وأخبرهم بقصتي؟!

زوجها الضابط.. سوف يساعدني حتماً..

خصوصاً إذا استمع الى قصتي العجيبة.. وكيف وصلت إلى هنا..

لولا الحرق الذي بلساني.. لما كنت أواجه أي صعوبة في الحديث.. ولكن ذلك التشوه يجعلني أفكر بصعوبة عن إيجاد الطريقة المناسبة لإنقاذ نفسي..

بالإضافة إلى أنني لا أتحدث سوى اللغة العربية..

صعبة من كل الطرق.. ولا يؤدي أي منها إلى روما..

ولكنني قررت المحاولة..

في ذلك اليوم..

وعند عودة زوج السيدة كالعادة للعشاء.. وقبل خروجي..

اقتربت منهما وبدأت في الحديث وبالإشارة بيدي شارحة لهما..

أخبرتهما بأنني لست من هنا وبأنني مختطفة.. وذرفت الدموع ليس تمثيلاً.. وإنما بصدق.. وسط استغرابهما..

كانا يردان عليّ بلغتهما الأفغانية.. ولا أفهم شيئاً..

حتى كررت عليهما كلمة واحدة: سعودية.. سعودية..

لم يفهما ذلك إلا بصعوبة.. حين قال لي الزوج الضابط

باستغراب: سعودية!!

ثم نظر إلى زوجته والحيرة عليهما..

تناقشا وهما ينظران إليّ.. شعرت بأمل أخيراً يجتاح عروقي..

دقائق صمت سادت.. شعرت اهتمامهما بأمري..

طلب الرجل معرفة رقم هاتف أهلي كما فهمت منه..

وذلك عندما كرر لي كلمه واحدة وهو يشير إليّ:

- تيلفون.. تيلفون..

ولكنني اجبته من خلال الإشارة بأنني لا أعلم شيئاً..

للأسف.. لم أكن أحفظ رقم منزلنا.. ولا حتى رقم هاتف المحمول الخاص بوالدي(9)!

وهذا ما زاد الأمر صعوبة عليّ..

لم يكن يملك هاتفاً محمولاً في عائلتنا سوى والدي..

ولا أذكر في يوم أنني قد اتصلت عليه..

لذلك لم يدر في خلدي أهمية حفظه..

حتى هاتف منزلنا.. لم تكن تستخدمه سوى والدتي..

عندما تتصل على جاراتها أو على خالاتي..

أكبر ما كان يشغلنا أنا وأختي.. هو أننا كيف نقضي اليوم في اللعب..

على جهاز الكمبيوتر.. أو بالعرائس التي تنام معنا..

للأسف.. لو أنني كنت أحفظ رقم هاتف منزلنا..

لاختصرت الكثير والكثير من الوقت ومن المعاناة..

واصل الرجل حديثه مع زوجته..

حتى جلسا أمام الهاتف.. واتصلا على رقم لا أعلم من صاحبه.. وبدأت السيدة بالحديث لمدة دقيقتين تقريباً..

ثم ابتسما لي بعد إنهاء المكالمة..

وتحدث معي الزوج بكلمات لم أفهمها.. لكنني شعرت بأنها كلمات تحمل من التهدئة والحنان ما يجعلني أصدق بأنهما نقيان من الداخل..

ثم قامت الزوجة بإعطائي صندوقا بلاستيكيا صغيرا

يحتوي على بعض الطعام.. وقبلتني.. وطلبا مني المغادرة كي أعود في اليوم التالي!!

في الحقيقة أُحبطت بعض الشيء.. لكنني قلت في نفسي..

مجرد أنني أخبرتهما.. وجعلتهما يجريان اتصالاً من أجلي.. هي خطوة للأمام ليست بالسهلة.. وسوف أواصل ما بدأت به غداً..

غادرت كي لا أتأخر على يحيى ووالده..

اللذين ينتظراني كالعادة..

وصلت الى السيارة وركبت في المقعد الخلفي كالعادة..

وفي جزء من الثانية..

وجدت نفسي ملتصقة بالزجاج الأمامي للسيارة!

سُحبت من شعري بكل قوة!!

حتى شعرت بتحرك جذور شعري من مكانها!

ضُربت ضرباً مبرحاً.. لم أتعرض له من قبل في حياتي!

كل هذا العنف.. تسبب به والد يحيى!

وسط بكاء يحيى الذي أزاح بوجهه بعيداً كي لا يشاهد المنظر..

ثبت والده وجهه بوجهي بعدما رمى صندوق الطعام..

وبدأ بالصراخ بكل قوة:

- ألم أحذركِ من المحاولة؟ ألم أحذركِ؟ هل تريدين الموت؟.. أقسم أنني لن أتردد في قتلكِ..

كنت أبكي من غير صوت.. لم أشعر بأي هواء كي

أحاول استنشاقه..

للأسف..

المكالمة التي أجرتها السيدة.. كانت مع والد يحيى!

كانت بحسن نية ظناً منهما بأنهما سيساعداني..

لم أصدق ذلك.. بل إنه لم يخطر على بالي أبداً..

بأن والد يحيى هو من كان يحدثهما في تلك المكالمة..

علمت بذلك صباحاً.. بعدما عدنا إلى المنزل..

أخبرني يحيى وهو غاضب من فعلتي..

تحدث معي والآلام تدب في جسدي كدبيب النمل..

قال لي إن الزوجين اتصلا بوالده الذي يجيد اللغة الأفغانية

بعض الشيء.. والعديد من اللغات بسبب اندماجه في

مجتمعهم..

وأخبراه بحسن نية بأنكِ تريدين شيئاً لم يفهماه..

وبأنك ترددين كلمة السعودية كثيراً.. علم والدي بأنكِ تحاولين إخبارهم بحالتك.. فأصابه الجنون فوراً وقام ما قام به معكِ.. توسل إليّ يحيى بأن أصبر حتى يحين الوقت المناسب للنجاة من الواقع المؤلم الذي وقعت به..

وطلب مني بألا أكرر ذلك التهور, فوالده أبسط ما لديه القتل..

خفت كثيراً من حديث يحيى.. هل فعلاً بأنه قد يقتلني؟

بدأت فعلياً في التفكير من هكذا ردة فعل قد تصيبني..

فقلبي ما زال قلب طفلة.. فتاة صغيرة لا تتحمل الرعب..

لم أكن أستطيع الذهاب إلى العمل في هذا اليوم..

بسبب الآلام التي خلّفتها تلك الضربات..

ولكن ذلك الجشِع العنيف كان مصراً.. فذهبت مرغمة.. ولكن لم تلك المرة كمثل كل مرة!!

عندما أوصلني والد يحيى مع ابنه.. جذبني من يديّ

بكل قوة.. ووضعني في المقعد الأمامي الى جانب يحيى..

تألمت كثيراً..

ثم أعطاني كيسا صغيرا جداً.. أصغر من عقلة الإصبع..

بداخله بودرة!!

وقال لي مباشرة وهو ينظر إليّ بنظرات حادة مرعبة:

- خبئي هذا الكيس جيداً.. كما تقول المعلومات التي قمتِ بجمعها طوال الأيام الماضية.. بأن السيدة تنتهي من إعداد طعام العشاء بعد صلاة المغرب تقريباً.. وبعد ذلك بساعة يعود زوجها الضابط إلى المنزل ليتناولا الطعام.. لذلك.. عليك التسلل إلى المطبخ خلسة.. قبل وصوله ونثر هذه البودرة عليه..

خفت كثيراً من طلبه.. ونظرت إلى يحيى وأوشكت على البكاء.. أمسكني من شعري وهددني بالضرب مجدداً..

ثم قال:

- أي محاولة رفض أو مراوغة منكِ سوف أعلم بها.. لأنني سوف أراقبكِ جيداً.. نفذي ما طلبته منكِ كي تحافظي على حياتكِ.

ارتعد جسدي من تهديداته المتواصلة.. ونزلت من السيارة وأنا أتبادل النظرات العاجزة مع يحيى.. كيف لي أن أتصرف..

كيف لي أن أفكر أصلاً..

لذلك.. وسط عجزي.. وضعفي.. وصغر عمري..

أقولها وبحرقة.. وجدت نفسي أنفذ ما طلبه مني حرفياً!

دخلت الشقة..

لاحظت السيدة اختلاف حركتي.. وعلمت أنني أتألم..

ولم تسألني لماذا.. ربما احتراماً لخصوصيتي وعدم إحراجي بذلك.. لهذا كانت رحيمة بي.. جعلتني فقط أقوم بترتيب الملابس النظيفة.. ثم أدخلتني المطبخ بعد المغرب ووضعت لي قليلاً من الطعام الذي أعدته وذهبت لأداء الصلاة..

للأسف.. لم أصن ثقتها بي.. لقد وضعت البودرة وأنا أقاوم دموعي.. لم أكن أعلم ماذا تحمل.. لكنني كنت متأكدة من أنها شيء غير جيد..

عدت إلى مكاني.. ومر الوقت ببطء حتى أتى وقت مغادرتي..

عاد زوجها الضابط إلى المنزل..

قبّلني هذه المرة على خدي.. وودّعني وهو في غاية السعادة..

عدت إلى السيارة وأنا جداً حزينة وغاضبة من نفسي..

سألني والد يحيى إن قمت بالمهمة.. فأجبت بنعم..

ثم أعادنا إلى المنزل وأغلق الباب علينا جيداً أنا ويحيى..

وغادر..

حدثت يحيى.. وأنا أشير بيدي متسائلة:

- ما الذي سوف يفعله والدك..

أجابني وهو مشتت الفكر وقال:

- لا أعلم.. لكنه حتماً سيفعل شيئاً سيئاً.. ربما سوف يسرقون منزلهم.. أتمنى أنها سرقة فقط..

تعجبت من أمنيته بأن يكون ما يخطط له والده سرقة فقط!

وكأنه يتوقع أنه قد يقوم بعمل شيء أبعد من ذلك!!

بقيت على أعصابي طوال الليلة.. وأدعوا ربي بأن يحمي الزوجين الطيبين..

حاولت النوم على الرغم من القلق الذي انتباني..

لم أنم نومة طبيعية منذ اختطافي..

لقد اشتقت حقاً لفراشي.. لوسادتي التي طُبع عليها شخصية الطفلة هايدي الكرتونية.. يبدو أنني أحمل واقعها.. لكن بطريقة مختلفة.. كنت قد اشتقت لألعابي.. للدمية التي أهدتها لي جدتي..

اشتقت الى تفاصيل مشاجراتنا أنا وأختي..

والى غضب والدي.. وضربه لنا ضرباً خفيفاً كنوع من التأديب..

وكذلك لتدخل والدتي رغم ذلك للدفاع عنّا..

أتذكر هذه المواقف الجميلة.. لكنني بدأت أشعر بضبابية ذاكرتي تجاهها.. يبدو أن غيابي وانقطاعي.. ومرور الأيام من دون أن أشعر..

أشياء تجعلني لا أتذكرها إلا مرات قليلة متفرقة..

وهذا قد يجعلها بالنسبة لي.. ذكريات أشبه بالحلم..

مؤلم حقا..

شعرت بالنعاس.. فتمددت ثم غلبني النوم..

حتى استيقظت صباحاً..

وجدت يحيى يتناول الإفطار.. طلب مني مشاركته..

ولم أتردد لشعوري بالجوع..

كان صامتاً.. ووجهه حزيناً.. حاولت أن أتحدث معه..

ولم يعرني أي اهتمام.. حالته النفسية كانت سيئة جداً..

ولست بأحسن حالاً منه طبعاً..

انتهينا من تناول الإفطار.. وقال لي بعدها وبكل هدوء

ومن دون مقدمات:

- لقد وصلني خبر سرقة منزل الزوجين..

حزنت حقاً.. لكن أذكر جيداً أنني لم أُصدم كثيراً من الخبر.. فلقد كنا نتوقع حدوث ذلك كما أخبرني قبل ذهابي الى النوم..

قلت له باندفاع.. فوحده من يفهم حديثي:

- لا أعلم كيف سأقابلهما اليوم.. كم أنا حزينة ومحرجة من مواجهتهما.. أخشى أن يشكا في أمري..

- لن تقابليهما بعد الآن..

- .. ولماذا؟

- لقد تمت سرقتهما.. ومن ثم إحراق الشقة وهما بداخلها نائمين.. لقد تفحما..

أعتقد أنه لا حاجة من شرح ردة فعل طفلة على خبر كهذا!!

بكيت حتى خرج الدم من فمي.. لم أشعر بشيء بعدها..

ركضت إلى داخل الغرفة.. ووضعت رأسي على الأرض وواصلت البكاء بحرقة.. كرهت نفسي بشكل لا يتصور..

حتى سمعت صوت الباب.. ثم صوت ذلك الحقير..

لقد عاد وكأنه منتصر!!

خرجت من الغرفة ووجدته جالساً بجانب ابنه..

اندفعت نحوه وأنا أبكي.. أريد أن أضربه ولو ضربة واحدة..

أو فعل أي شيء كي أطفئ نار القهر التي بداخلي..

لكنني أضعف من ذلك.. جسدي النحيل لا يقوى مقاومة شيء.. صفعني على وجهي وصرخ عليّ.. طالباً مني الهدوء..

لم أصدق الخبر..

هل يعقل أن الزوجين الطيبين قد فارقا الحياة؟

وبتلك الصورة البشعة؟!

وهل يعقل أنني أنا من ساهمت بذلك؟!

كنت أبكي.. وهل يفيد البكاء؟

ما أجمل نعمة البكاء..

لا أعلم ماذا كنا سوف نفعل لولاها؟

مهما كانت حجم المصيبة.. البكاء وحده..

كفيل بأن يفتت كتل الهموم التي تقبع داخل قلوبنا..

لكنه للأسف.. يفتتها فقط.. ولا يزيلها!

كنت أضرب نفسي وألعنها.. وألعن والد يحيى..

ويحاول يحيى تهدئتي.. ولكن بلا فائدة..

هذه الحادثة.. كانت نقطة تحول جذرية ثانية في دمار نفسيتي.. بعد حادثة حرق لساني.. في البداية..

مرت الأيام.. وأنا لم أفارق مكاني في المنزل سوى لقضاء حاجتي.. حتى الطعام لا آكله إلا عندما أصل الى مرحلة صعبة من الجوع.. حتى يحيى.. على غير العادة لم أكن أطيق أن أتحدث معه.. وكان حزيناً بذلك..

حاول معي كثيراً.. حتى تجاوبت معه قليلاً بعد أسبوع تقريباً من الصمت المطبق.. فرح بتجاوبي معه.. وشعرت كما لو أنه مستعد بأن يجيبني على أي سؤال سأطرحه عليه..

فقط لكي أتحدث معه..

سألته أن يخبرني لماذا حدثت كل تلك البشاعة للزوجين؟

أخبرني وهو منكسر وخافض الرأس:

- أخبرتك بأن والدي يعمل في أي شيء يوفر له المال.. مهما كان ذلك العمل بشعاً.. وهذه المرة كان الضحية ذلك الضابط.. وزوجته دفعت ثمن وجودها معه.. رفضت أن تتركه وسط التهديدات التي تعرض لها.. لذلك قررا أن يبعدا أطفالهما خارج البلاد..

سألته وأنا متعطشة لمعرفة الإجابة:

- ولماذا يريدون قتله؟

- إنه أحد ضباط الجيش الأفغاني الذين ساهموا بقتل الكثير من رجال جماعة طالبان(10)!

نظرت إليه بصمت.. وحركت يدي بطريقة مفادها..

ما الذي تقوله فأنا لم أفهم شيئاً.. فواصل حديثه بشكل مبسط:

- طالبان مجموعة مقاتلين متشددين دينياً.. يقاتلون الأمريكان وكل من يعاونهم.. وعلى رأسهم رجال الأمن

والجيش وغيرهم من الحكومة الأفغانية(11) .. لذلك تعرفوا على هوية الضابط وعلى بيته وقرروا الانتقام لزملائهم الذين قتلوا بسببه.. وكلفوا معارفهم بالبحث عمن يساعدهم ووقع الخيار على والدي.. الذي استخدمك على ما يبدو لتنفيذ حيلته الخبيثة.. مستغلاً حاجة زوجة الضابط الى خادمة..

اللعين!! لقد جعلني طعماً لهما!

لم يخطر على بالي أنني سأنجز مهمة قذرة وبشعة كهذه!

لن أغفر لنفسي.. ولن أغفر لوالد يحيى النذل الحقير..

سوف أنتقم مع أول فرصة قد تسنح لي..

لم أصدق أنني أحدث نفسي بهذه الطريقة المرعبة!

لقد حولني من طفلة بريئة.. إلى طفلة تسعى للانتقام!!

لم يمهلني ذلك الوغد أن أجمع فوضى آلامي..

ولا أن يجفف الوقت دموعي..

حتى أخبرني بأن هناك عائلة جديدة تريد خادمة!

لا يعقل ما يقوله هذا المجنون بكل جرأة..

يريد تكرار فعلته.. ومن خلالي أيضاً!

كل ما أستطيع فعله للرفض.. هو أن أبكي..

لقد جفت ينابيع دموعي.. ولم أعد أشعر بتلك الراحة

التي تخلفها الدموع بعد الانتهاء منها..

تأثرت نفسيتي كثيراً..

لم أعد أشعر بلذة ذلك الطهر بداخلي.. بروح الطفولة البريئة..

قبل حادثة الاختطاف.. كنت أعشق الحركة واللعب..

هوسي باللهو.. هو من تسبب في ذهابي إلى مؤخرة مصلى النساء.. ومن ثم اختطافي بتلك الطريقة المرعبة..

أصبحت هادئة من الخارج.. مضطربة بحدة من الداخل..

كنت أنسى عمري الحقيقي..وأشعر كما لو أنني امرأة كبيرة..

وكيف لا أشعر بذلك وأنا أبكي بشكل شبه يومي ليلا ونهارا..

ولا أجد أي ردة فعل تعاطف من الذين تسببوا في نزول دموعي!

جلست على الأرض وضممت يديّ على ركبتيّ..

وحركت رأسي بالرفض.. كان يمسك زجاجة مشروب غازي في يده.. ألقاها تجاهي بقوة.. فاصطدمت بالجدار..

الى جانب رأسي مباشرة..

تهشمت تماماً وكان صوتها كالانفجار الذي شلّ سمعي!

صمتُّ مرتعبة.. ومصدومة.. غير مصدقة للموقف..

وكذلك يحيى الذي تصلب تماماً في مكانه..

قال وهو ينظر إليّ مهدداً:

- لا أتحمل لعب الصغار.. المرة المقبلة سوف تكون في منتصف وجهك الصغير.. عندها سوف يتهشم مثل الزجاجة تماماً..

واصلت صمتي.. فالصمت في هكذا موقف.. أبلغ تعليق..

هذا التخويف الرهيب الذي يمارسه..

للأسف يؤتي أُكله معي.. أجد نفسي منصاعة لأوامره..

خوفاً من العقاب الشديد الذي لا تتحمله فتاة صغيرة..

مرّ اليوم سريعاً..

حتى أتي وقت العصر.. وقت ذهابي للعمل لدى العائلة الجديدة.. الإحباط الذي اعتراني ذلك اليوم..

كان يجعلني أرضخ للأمر الواقع.. وردة الفعل العنيفة

من قِبل هذا المجرم تجاهي.. تزيد من طاعتي له..

خصوصاً أنني كنت أقنع نفسي بإمكانية عثوري على فرصة جديدة للنجاة.. ربما من خلال هذه العائلة الجديدة..

أتى ذلك الوغد.. كي يلقي تعليماته.. ويعيد طلباته..

علمت منه أن رب هذه الأسرة أيضاً.. ضابط بالجيش الأفغاني.. استطاع أن يقنع عائلته بعلاقاته بالعرض المغري لعمل خامة لديهم بسعر زهيد.. تماماً نفس الحيلة التي دخل بها من خلالي.. إلى منزل أسرة الزوجين القتيلين..

ركبنا السيارة أنا ويحيى ووالده.. وقبل أن نغادر..

حدث أمر ما!!

أقبل علينا رجل وهو يركض ويصرخ!

لقد كان شخصاً يبدو أنه من سكان البلد..

كان مرتبكاً.. وكما لو أنه يحمل خبراً غير سار لوالد يحيى..

تحدث الرجل معه بلغته الأفغانية التي يجيدها ذلك الحقير..

ولاحظنا أنا ويحيى الخوف الذي ساد على وجه والده!

كان يسأله ويجيبه.. يحدثه بعنف ويرد عليه بخوف..

لم أفهم شيئاً أبداً.. حتى غادر الرجل..

تحدث الحقير غاضباً وهو يضرب مقود السيارة بكلتا يديه:

- نحن الآن في خطر!

سأله يحيى بتعجب:

- ما الذي يريده ذلك الرجل.. ماذا يحدث؟

- هذا الرجل له علاقات قوية ببعض رجال الأمن..

استطاع بمعرفته أن يتعرف على ردة فعلهم تجاه حادثة مقتل ضابط الجيش وزوجته..

- وما الذي أخبرك به؟

- لا أعلم كيف فاتني أن أستكشف محيط البناية.. لقد كانت هناك كاميرات مراقبة ثبتها ذلك الضابط على البناية بعد تلقيه العديد من التهديدات.. وللأسف صورت تلك الكاميرا لحظات توصيلنا لإيمان إليهم.. وكذلك لحظات انتظارنا لها ليلاً.. حصلوا عليها وشاهدوا كل شيء.. وهم الآن يريدون معرفة سر تلك الفتاة العاملة! التي كانت تتردد عليهما.. يقصدون إيمان طبعاً.. أخبرني بأنهم يبحثون عنها..

وعثورهم عليها.. يعني عثورهم علينا.. وبالتأكيد ذلك يعني نهايتنا!!

صدمة حقيقية.. ما الذي يقوله هذا المجرم؟

لماذا نهايات هكذا أشخاص ترتبط بي؟!

ونجاتهم تكون في زيادة عذابي؟!

ما هذا الحظ اللعين الذي يلازمني؟!

هل سوف أتورط في الحادثة؟

لقد صورت الكاميرا ملامحي بالتأكيد!

دخلت مجبرة إلى هذه البلاد.. لا أحمل اسمي الحقيقي،

ولا حتى جنسيتي.. وبعد كل هذا.. يبدو أنني على وشك

أن أحمل تهمة ليست تهمتي!!

سأله يحيى.. الذي كان مصدوماً أكثر مني لما قاله والده:

- ما الذي سوف نفعله الآن؟

- سوف نوقف كل العمليات.. لن تذهب إيمان إلى تلك الأسرة الجديدة المستهدفة.. يجب أن نختفي جميعاً عن الأنظار..

فرحت كثيراً بذلك القرار.. على الرغم من المصيبة التي سمعتها للتو.. إلا أنني ارتحت قليلاً من عدم ذهابي إلى العمل لأداء مهمة قذرة جديدة..

ضد أسرة تدافع عن وطنها في ظروف معقدة..

ولكن تلك الراحة النفسية لم تدم طويلاً!!

وكأنه يأبى أن أرتاح ولو قليلاً.. يأبى تماماً..

حيث تحدث بعد أن فكر وهو قلق جداً:

- سوف نعود إلى بلدنا.. اليمن.. بقاؤنا هنا خطر على حريتنا..

تحدث يحيى ببراءة.. وكان تساؤله منطقياً:

- وإيمان؟ كيف نتركها وحدها هنا؟

- إيمان أول من سوف تغادر هذه البلاد.. فبقاؤها يعني ضياعنا.. سوف نأخذها معنا.. لن أجعل طفلة مثلها تتسبب في نهايتي على أيادي رجال الأمن هنا..

نظر إليّ يحيى مصدوماً وبادلته نظرات الصدمة..

مع هذا الرجل.. لا هدوء.. لا توقف للصدمات..

قراراته دائماً.. صادمة.. ومفجعة.. ومن دون أي تمهيد..

ماذا يقول هذا المجنون؟ اليمن!!

وماذا أفعل في اليمن.. أريد أن أعود الى بلدي..

لا أعتقد أن فتاة في عمري قد سافرت كل تلك البقع وهي مجبرة.. وبطرق غريبة لا تصدق كتلك التي مررت بها..

هذه المرة لم أبكِ.. لأنني لا أريد البقاء في هذه البلاد فعلاً..

فما شاهدته يفوق طاقتي.. وبقائي هنا قد يعرضني للوقوع تحت طائلة العقاب.. وأنا مظلومة..

سأل يحيى والده سؤالا جداً مهم:

- تعلم يا والدي أن التنقل بين أفغانستان وباكستان ممكن.. ولكن كيف سوف تنقل إيمان إلى اليمن؟ خصوصاً أن عمرها الصغير لا يسمح لها أن تسافر من دون أهلها..

تساؤل يحيى كان مهماً فعلاً.. علمت ذلك من ردة فعل

والده تجاهه.. لم يطالبه بالصمت هذه المرة ولم يعنفه..

صمت قليلاً.. ثم نظر إليّ نظرة لا تحمل خيراً!

ثم بدأ يشرح الطريق لليمن بصوت عالٍ كنوع من التفكير..

وفهمنا من حديثه أن المسافة بين أفغانستان واليمن بعيدة جداً.. والمرور براً غير ممكن.. وعن طريق البحر خطر جداً..

وإن حاولنا فهي مغامرة مجنونة وتحتاج إلى وقت طويل جداً.. والأهم من ذلك عواقبها ستكون وخيمة بالتأكيد..

حتى وصل إلى أن قال:

- أحياناً.. إذا أردت أن تفعل شيئاً مخالفاً.. وتخشى من عدم نجاحه.. افعله نظامياً.. تلك أفضل طريقة لإبعاد الشبهات.. سوف نغادر أفغانستان بطريقة رسمية!

لم نفهم شيئاً أنا ويحيى.. ثم واصل حديثه وقال:

- الفتاة تملك جوازاً موثقاً لدى الحكومة الأفغانية باسم شخصية حقيقية لم يتم تسجيل حالة وفاتها.. شخصية إيمان.. سوف تغادر معنا بجوازها الأفغاني بكل سهولة!

واصل يحيى حواره مع والده وسط صمتي المبرر..

فأنا لا أفهم مثل هذه الأمور المعقدة.. كل ما أعرفه أنني أريد أن أتخلص من هذا الكابوس.. قال يحيى:

- أنا سوف يسمحون لي بالسفر معك بصفتي ابنك.. لكنهم سوف يسألونك عن إيمان.. ما صفتها معنا؟

أجابه بكل جرأة وبرود:

- زوجتي!!

صدمة جديدة ألقاها في وجهي ذلك الشيطان اللعين..

ما هذه المخلوقات التي أقابلها في طريقي..

أحياناً تكون ردة الفعل تجاه بعض المواقف المفجعة هادئة.. وغريبة.. بشكل غير متوقع..

ربما من هول وقعها.. قد تكون تعدت مرحلة الصدمة..

هي أكبر من ذلك.. لذلك لم أتفوه بأي شيء..

كانت ملامحي المتحنطة من الصدمة.. تتحدث بتعابيرها..

نظر إليّ يحيى بشفقة وخوف.. ثم سأل والده وهو يتلعثم مصدوماً.. وبكل براءة:

- لكنها متزوجة!

- عقد زواجها لم يوثق.. وتأكدت من ذلك بنفسي..

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنه زواج صوري.. سأرتب كل شيء يخص زواجنا نحن.. وسوف أوثقه رسمياً.. وعندها سنستطيع المغادرة بشكل نظامي في أسرع وقت..

قبل أن يتوصلوا إلى هويتنا.. ولا أعتقد أنهم سوف يصلون إليها بسرعة..

بعد انتهائه من خطته القذرة.. التي من المستحيل أن تخطر على بال شخص طبيعي.. كانت تدور في مخيّلتي بعض المعلومات المدرسية التي اكتسبتها.. تذكرت أن اليمن يلاصق حدود بلدي السعودية..

شعرت ببساطة.. من أن وصولي إلى هناك.. سوف يكون أكثر أماناً لي من تواجدي هنا.. في هذا المكان البعيد جداً عن كل شيء..

لذلك، قلت وبصوت منخفض ومن دون تردد:

- موافقة..

صُدم يحيى من ردة فعلي.. لكنه لم يعلق أبداً..

لأنه يعلم أصلاً أن والده إذا قرر.. فإن الاعتراض لا فائدة منه سواء منه أو حتى مني أنا صاحبة الشأن..

يبدو أن خوفنا من العقاب.. جعلنا نتقبل فكرة ذلك اللعين..

وبالفعل.. خلال يومين فقط.. أتم كل الأمور..

كتب عقد الزواج بواسطة صديق له متنفذ في هكذا أمور..

ووثقه كما أخبرني يحيى الذي كان حزيناً لما وصلت إليه..

وكان محرجاً مني لأنه كما يقول لي إنه يرى كل شيء

ويقف عاجزاً أمام مساعدتي..

وكنت أهوّن عليه ذلك الإحساس بالذنب.. ببعض الكلمات..

حيث أخبرته مراراً بأننا جميعاً لا نقدر على فعل شيء..

لقد أصبحت رسمياً.. زوجة والد يحيى!

إنه الزواج الثاني لي.. وأنا لم أكمل حتى الرابعة عشرة بعد!

ومن دون علم أهلي!!

من يصدق ذلك! أنا شخصياً لم أصدق.. ولن أصدق..

مرّ اليوم سريعاً.. تم ترتيب الحجوزات وموعد الرحلة..

صباح اليوم التالي.. توجهنا إلى باكستان.. عبر الحدود بشكل نظامي.. فهناك بالقرب من الحدود كما أخبرنا يوجد مطار أكثر أماناً في مدينة بيشاور(12)

وبالفعل.. حصل ما خطط له.. نجحنا ومررنا..

كان كل شيء نظامياً.. على الرغم من شكوكهم في ملامحي العربية.. إلا أن الكحل الذي أحاط بعينيّ واللباس الأفغاني ساهما في تقبل شكلي لديهم كما حدث سابقاً معي..

استغرقنا ساعات حتى وصلنا إلى المطار..

دخلنا والخوف قد تمكن مني كعادته..

بعضاً من الوقت.. وتجاوزنا نقاط التفتيش في المطار..

وهذا هو المهم..

فجوازي الأفغاني ووثيقة الزواج كانا كفيلين بأن يخرجاني من هذه البلاد.. بلا شكوك..

ركبنا الطائرة..

كان والد يحيى يجلس وسطنا.. ويحيى على يمينه..

وأنا على يساره.. هذا الموقف شبيه تماماً بما حصل لي سابقاً..

وجودي بالطائرة بهذا الشكل.. أعادني الى ذكريات رحلة قدومي إلى باكستان.. بداية ضياعي.. عندما خرجت من وطني للمرة الأولى مع العجوز سلوى وزوجها بواسطة جواز ابنتهما..

هما سببا كارثتي وكل ما وصلت إليه من آلام..

ولم نطمئن ثلاثتنا.. حتى أقلعت الطائرة..

وأصبحنا في الهواء أحرارا.. لقد نفدنا!

تدافع الصدمات..

أوصلنا إلى اليمن!

وصلنا إلى مطار دولة خليجية..

انتظرنا قرابة الأربع ساعات.. ثم واصلنا الرحلة إلى أحد مطارات دولة اليمن..

ووصلنا بعد رحلة مملة.. وغير مريحة..

تخللها النوم والطعام وآلام الظهر والأرق وغيرها..

فحجم القلق الذي كان ينتابني.. لا يمكنني وصفه..

إلى درجة أنني لا أذكر تفاصيل ذلك المطار اليمني..

كل ما أذكره هو ذلك الزحام الذي أضاق بالممرات..

أصبت بضيق في التنفس لا أعلم لماذا..

كنت أنتظر لحظة المرور من نقطة التفتيش والتدقيق..

وألا يتم القبض عليّ على غير العادة..

فلقد كنت أريد المرور أكثر من أي مرة مضت..

وبالفعل.. استغرق الوقت منّا قرابة الساعة..

حتى وجدنا أنفسنا نقف في الشارع.. وأصوات السيارات والبشر لا تنقطع.. لقد مررنا!!

انتظرنا بعض الوقت حتى وصلت سيارة يقودها رجل يمني.. أخبرني يحيى بأنه صديق والده..

أخذه بالأحضان.. وقدم له يحيى.. وصافحه..

ثم نظر إليّ.. واستغرب مني ومن هيئتي..

قاطع والد يحيى شكوكه قبل أن تكتمل, وأخبره بأنني زوجته الأفغانية الجديدة.. وضحك كثيراً ثم بارك له هذه الخطوة!

قلت في نفسي.. غبي.. ما المضحك أن ترى طفلة..

.. قد أصبحت متزوجة؟

ركبنا معه.. وجلست أنا ويحيى في المقعد الخلفي..

الحالة النفسية السيئة.. لم تكن تسمح بتبادلنا الحديث..

فمهما صبرنا على الصدمات التي تنهال علينا..

من وراء تلك المواقف التي تستبيح رقة طفولتنا..

لن نصمد.. فنحن صغار جداً على تحمل كل هذا المسافات والأعمال والمواقف التي تدمر كل البراءة التي يفترض أنها

بداخلنا..

بعد أن قطعنا مسافة طويلة لا أعلم أين نهايتها..

توقف صديق والد يحيى عند أحد المطاعم الشعبية..

واشترى الطعام لنا.. ثم ذهبنا إلى مكان بالقرب من أحد الأشجار.. وجلسنا لنأكل.. كانت أكلة يمنية لذيذة جداً..

لحم ومرق وخبز وأرز.. كان كريماً معنا حقاً..

ثم انطلقنا حتى وصلنا إلى ما تسمى بمحافظة حجة(13)..

كما أخبرني يحيى عن اسمها عند وصولنا..

ثم غادرت السيارة وصاحبها الذي ودّعنا..

ومن هنا بدأت معاناتي الجديدة!!

وبدأت بمعايشة أحداث تقضي على ما تبقى لي من إنسانية!

واصلنا المشي حتى وصلنا إلى منزل صغير..

يملكه والد يحيى..

كان قديماً.. ولا يحيط به أي منزل آخر!

ولا أعلم كم بيت يملك هذا المتجبر.. ولماذا يختار البيوت المعزولة.. بالتأكيد لمداراة أفعاله النذلة عن أعين الناس..

رضخت للأمر الواقع..

ولم يمضِ على وصولنا ساعات..

حتى بدأ ذلك القذر بالاتصال بكل معارفه.. وبتنشيط كل علاقاته.. والبدء في عمله الذي كان يديره من بُعد!

توفير الأطفال وتهريبهم من أجل استغلالهم في التسول!!

أطفال.. أطفال.. أطفال..

يستغلون ضعفهم وعجزهم في تحقيق الثراء لأنفسهم..

يا الله.. كم طفل شاهدت منذ يوم اختطافي حتى اليوم؟

هل حملهم تسعة أشهر.. عملية بسيطة؟

أم هل أن ولادتهم سهلة؟

لماذا تنتهك طفولتهم؟ ويتم حرمان أمهاتهم منهم؟

لحاجات فئة من البشر لا تعرف الرحمة؟

منهم من يستخدمهم للجنس؟

ومنهم من يستخدمهم لكسب المال؟

ومنهم من يكون رحمياً بهم ويستخدمهم للعمل بالمنازل؟

إن وظيفة الطفل الوحيدة.. هي اللعب.. لا شيء غير ذلك..

أن يلعب ويضحك ويلهو ويسعد.. أن يرقص.. أن يطلب ويحصل.. أن ينام مرتاحاً ويصحو فرحاً..

أن يعالج إن مرض.. أن يحلم قبل أن يكبر..

ما شاهدته.. ليس له علاقة بكل ما ذكرته..

مؤلم هو حال الأطفال.. ومؤلم ما شاهدته..

أعلم أن في وطني أطفالا من أبناء جلدتي يعانون..

ولكن لم يعيشوا ما مررت به.. أو ما مر به يحيى وغيره من أطفال المناطق الفقيرة والمفتقدة للأمن والأمان..

أتمنى.. أن أكون الأولى والأخيرة من أبناء منطقتي..

وأن يتغير واقع الأطفال الذين صادفتهم.. للأحسن..

لقد مللت من مشاهدة انتهاكاتهم للأطفال في كل مكان أصل إليه..

كان كل ثلاثة أشهر تقريباً..

يقوم بجمع العديد من الصبيان الصغار.. والفتيات الصغيرات..

البعض يقومون بخطفهم هو ومن يعملون معه..

والبعض الآخر يشترونهم من خاطفين آخرين بأسعار معينة.. لأن بعض الخاطفين ليست لديهم القدرة على تهريب الأطفال..

وفئة منهم يقومون بشرائهم من عائلاتهم نفسها!

وبرضاهم!!

نعم تخيلوا.. هناك في هذا العالم الكثير ممن يبيع أطفاله!!

الفقر.. عدو الرحمة الحقيقي..

قد يجبرك الفقر على فعل ما لا تتخيل أنك في يوم سوف تفعله..

وهذه كانت بداية والد يحيى كما ذكرت لكم..

عندما كان الفقر يسيطر على مفاصل حياة عائلتهم..

فعلها مع ابنه يحيى.. لكنه تعرف بعد ذلك كما علمت من يحيى نفسه.. على ذلك المهرب الذي أعطى والده ثمنه..

وأصبح يخطف الأطفال.. ويبيعهم بسعر زهيد للمهرب.. حتى أصبح مساعده.. ولكن ما أخبرني به يحيى عند وصولنا.. أن والده كان حظه قوياً عندما استغل تورط

المهرب الذي كان يعمل لديه.. بعدما تم القبض عليه من قبل السلطات السعودية على الحدود..

وتم سجنه وغياب أخباره.. فقرر والد يحيى أن يواصل العمل وحده.. مستغلاً خبرته التي اكتسبها من المهرب المسجون.. وعلاقاته المتعددة بين المهربين الخطيرين..

الحقير.. لا يهمه من يفقد.. بل ما يهمه كيف أن يستمر، باحثاً عن مصلحته الشخصية.. مخلوق عجيب حقاً..

ما رأيته بعينيّ..

أنهم كانوا يفضلون فئة الأطفال المصابة بإعاقة ما!

لأن أمثالهم.. في نظرهم.. يكسبون تعاطفا كبيرا من المارة.. فترتفع نسب إعطائهم المال..

وعليه تزيد الأرباح.. والأهم.. صعوبة محاولة تفكيرهم في الهرب من قبضة المهربين..

والعديد من الأمور.. التي أصبحت مزايا في نظرهم!

مرت علينا قرابة الأربعة أشهر..

وأكملت الرابعة عشرة من عمري!..

بل تجاوزتها إن لم أخطئ في الحساب..

لقد مرت سنة كاملة أو أكثر.. على غيابي عن أهلي!

حتى أتى ذلك اليوم.. الذي بقي عالقاً في مخيّلتي..

كنت أقف الى جانب يحيى أمام منزلهم الشعبي..

عندما رأيت تلك الشاحنة الصغيرة التي حملت أكثر من عشرة أطفال.. بعضهم يحمل إعاقات مختلفة.. حزنت على وضعهم كثيراً..

كانوا كالألواح الخشبية الصامتة.. ولكنهم على هيئة أطفال..

لا يضحكون.. ولا يتحدثون.. ولا حتى يتحركون!

لقد قتلوا فيهم الطفولة!.. لم يرحمهم حظهم البائس بإعاقتهم..

ولا حتى هؤلاء الوحوش الذين يعبدون المال بشكل

لا يصدق..

وصلت سيارة صغيرة.. وتوقفت الى جانب الشاحنة المحملة بالأطفال.. ثم نزل منها رجل..

وعندما دققت النظر.. لم يكن غريباً عليّ!

لم تفارق عيني وجهه حتى تحدث وصافح والد يحيى

وابتسم..

ابتسامته الصفراء تلك جعلتني أشعر كما لو أن صعقة كهربائية لامست جسدي!

لقد تذكرته! استحالة أن أنسى ذلك الوجه..

إنه ذلك الرجل المصري!

الذي صادفته في الطائرة عندما كنت برفقة سلوى وزوجها!

ذلك الغبي الذي أفسد محاولة نجاتي من دون أن يقصد..

كان هو من يأمر وينهي سائق السيارة المحملة بالأطفال..

لاحظ يحيى أنني لم أكن على ما يرام..

سألني:

- ما خطبكِ؟

قلت له بكل هدوء:

- سبق وأن شاهدت هذا الرجل.. في أول رحلة لي مع المعاناة خارج وطني.. كان يجلس في المقعد الذي خلفي.

- معقول! هل أنتِ متأكدة؟

- نعم.. استحالة أن أنسى ملامحه وهو يبتسم..

أخبرني يحيى بأنه أحد أشهر المهربين من الجنسية المصرية.. يدعى أبو مصطفى.. إرهابي سابق.. له سوابق كثيرة.. قرر العمل في هذا المجال.. أسهل وأكثر ربحاً للمال.. والدي يتعامل معه منذ مدة طويلة.. يقوم بتهريب أطفال من جنسيات مختلفة إلى السعودية.. من أثيوبيا.. والصومال.. وغيرهما.. بالإضافة إلى أطفال اليمن.. وذلك طبعاً برفقة معاونين يمنيين.. والأخطر من هذا كله.. تجارته القديمة التي تركها.. التجارة في الأعضاء(14)!

سألته بدهشة وحيرة ألمت بي لجهلي التام بهكذا عبارات:

- أعضاء؟!.. كيف ذلك؟ لم أفهم؟

- موضوع طويل يصعب فهمه.. لكنه باختصار.. سبق وأن سمعته يتحدث مع والدي أكثر من مرة بأنه يفضل الأطفال المعاقين إعاقات خطيرة كي يستغل عجزهم.. ويأخذ منهم الأعضاء السليمة ويبيعها بأسعار مغرية.

لم أستوعب ما قاله يحيى.. شعرت برغبتي بالاستفراغ.. أصابني تقزز غير مسبوق.. ما طبيعة هؤلاء البشر؟

هل يعقل أن ما قاله لي صحيح؟!

عدت بالنظر إلى ذلك المجرم.. الذي لم أتوقع أنه يحمل خلف تلك اللحية كل تلك المصائب البشعة.. وجدته قد انتهى

من الحديث..

ثم قام بمصافحة والد يحيى وسلمه المال وودعه..

وقام بعد ذلك بتوديع صاحب السيارة المحملة..

واستقل هو سيارته التي قد أتى بها..

إنهم يعملون.. بمختلف جنسياتهم.. على تدمير العائلات.. بتشتيت شملهم.. وإزهاق الطفولة البريئة..

مرت الأيام.. والأسابيع.. حتى قرابة الشهرين..

وأنا أشاهد مثل هذه المناظر على فترات متقطعة ومتباعدة..

حتى أتت تلك الفترة التي شعرت فيها بمحاولة والد يحيى القذر باستغلال عقد زواجه مني.. كان يحاول الاقتراب ويحاول أن يحصل على أي شيء..

ولكنني كنت عنيفة وقاسية معه بشكل لم أعتد عليه من قبل..

كنت أبعده وأصرخ في وجهه بقوة..

وكانت تلك المحاولات تؤلم يحيى حتى البكاء..

شعرت بأن كرهه لوالده قد تضاعف بسببي..

ولكن أضعف من أن يفعل شيئاً.. ضد جبروت ذلك الوغد..

لماذا أغلب الذكور..

كلما سنحت لهم فرصة عجز أنثى؟

تنعدم رجولتهم وتختفي فوراً!

هناك فكرة تعشعش بداخل عقول غالبيتهم..

بأن كل أنثى عاجزة.. أو تمر بظرف ما..

أو كانت وحيدة أمام مشاكل ما.. هي هدف مشروع للتجاوز وتفريغ الأمراض؟

الذكر الوحيد الذي وقف معي وقفة رجل..

هو يحيى.. على الرغم من انتهاك رجولته!

الحقيقة تقول.. بأنه أكثر رجولة منهم جميعاً..

مللت الانتظار.. وانتظار الفرج..

أنتظر بأن يبتسم لي القدر.. ويسخِّر لي الطريق بالعودة

إلى وطني.. وعائلتي..

ولكن تلك الأمنيات الوردية.. قد تبددت فوراً!

عندما دخل علينا والد يحيى المنزل وهو يرتعد خوفاً!

أخذ نفساً متقطعاً ثم قال متردداً ومرتجفاً:

- كارثة قد وقعت! شيء لم يخطر على بالي أبداً..

الأخ الأصغر لأبي الفاروق ورجاله الذين أصبحوا تحت إمرته بعد وفاة أخيه.. علموا أن إيمان معي, وأننا الآن في اليمن!!

لاحظت الصدمة قد حلت على يحيى.. ولم أتأثر مثلهما بالخبر.. صرخ والد يحيى ثم وضع يداه على رأسه.. وواصل:

- لا بد أن نعيدكِ إليهم.. قبل أن يقتلونا جميعاً!

تدخل يحيى وهو مهزوز الثقة وسط صمتي وقال:

- وما دخلها.. لماذا نعيدها إليهم بدل أن نعيدها إلى أهلها؟ من الخطر أن نغامر ونعيدها إلى هؤلاء الرجال.. ثم ما علاقتها بهم؟ لقد توفي زوجها أبو الفاروق وانتهت علاقتها به بموته..

أجابه والده.. وعيناه تكادان لا ترمشان بسبب الرعب الذي

حلّ عليه:

- هذا هو السبب.. لأنها زوجته.. أخبروني بأن لديهم عقد زواجهما.. وأن وفاءهم لأبي الفاروق لا يجعلهم يتركون حرم سيدهم تتجول هكذا في الشوارع وهي تحمل اسمه..

يريدون منها أن تعود وأن يتزوجها أخاه.. قائدهم الذي أصبح يشغل مكانه الآن!

بدأت أنفاسي في التصاعد شيئاً وشيئاً.. وتجمعت دموعي منتظرة السقوط.. لكنني صرخت في وجههما وقلت لهما بصعوبة:

- هل صدقتم الكذبة؟ أنا لست إيمان.. أنا فتاة سعودية مختطفة.. وهذا الاسم ليس اسمي.. لن أعود..

أنا الآن اقتربت كثيراً من بلدي.. تفصلني الحدود فقط.. أرجوك لا تتجاوب معهم..

نظر والد يحيى إليه وسأله بغضب:

- ما الذي تقوله هذه الغبية؟ ترجم؟

أخبره يحيى بخلاصة حديثي.. ولكن والده رد بغضب:

- مستحيييييل.. أنتِ ثمن نجاتي من الموت.. لم أشبع من ملذات الدنيا بعد.. ولم أستمتع بالمال الذي جمعته..

كارثة حقيقية لو علموا بعقد زواجنا الموثق على عقد زواج أبي الفاروق!!

يبدو فعلاً أننا أصبحنا أمام مصيبة جديدة.. لن يرحموه بها.. حاول يحيى إقناعه قليلاً وكعادته قام بضربه.. ثم

سحبني بقوة ووضعني في غرفة.. وأغلق عليّ الباب بالمفتاح.. وأخبرني بأنه سوف يعود إليّ, بعد أن يسأل أصدقاءه هناك عن الوضع العام.. مردداً ومؤكداً أنه لا بد من إعادتي إلى أفغانستان!

بكيت كثيراً على وضعي المزري.. شعرت بأن هذا الواقع لن يتغير أبداً.. وبدأ اليأس يتسلل إليّ ويزداد شيئا فشيئا.. بدأ يأخذ وضعه بشكل لم أعهده.. هل سوف تبقى أمي وعائلتي مجرد ذكرى؟ أم ماذا؟..

كان يُدخل عليّ الطعام ويغلق الباب مرة أخرى..

حتى يحيى لم أرَه أبداً..

شعرت بأنني عدت مرة أخرى الى تلك الحالة..

حالة السجن.. بعدما مررت بها مع أبي الفاروق..

ولكن هذه المرة كانت مختلفة تماماً..

حيث لم يمر على احتجازي سوى ثلاثة أيام فقط!

حتى أتت تلك الليلة..

التي فُتح فيها الباب بهدوء.. جعلني أرتبك خوفاً..

لقد كان يحيى!

تكرر المشهد.. عندما حررني وفتح عليّ الباب في أفغانستان..

الآن يتكرر.. ولكن في اليمن!

طلب مني الهدوء وأن أتبعه بحذر.. فوالده لم يعد بعد..

سرق المفتاح منه من دون أن يشعر قبل أن يخرج..

وانتظر الظلام.. كان الوقت تقريباً يشير إلى ما بعد منتصف الليل..

تبعته وأنا فرحة.. لكنني لا أعلم إلى أين نسير هذه المرة..

حدثت نفسي وأنا خائفة..

لن أنسى لك كل هذه المواقف يا صاحب القلب الطيب..

واصلنا السير.. مشينا كثيراً حتى وصلنا إلى شاحنة صغيرة..

كان ينتظرنا رجل لم تتضح ملامحه إلا بعدما اقتربنا منه.. لقد كان ذلك الرجل المصري.. أبو مصطفى!!

يركب في مقدمة الشاحنة والى جانبه شخص يقودها..

نظرت إلى يحيى وأنا مندهشة منه.. وقلت له غاضبة والكلمات تخرج من فمي مرتجفة:

- ما الذي يحدث؟

- إيمان.. هذه فرصتك الوحيدة للعودة إلى أهلك.. لقد اتفقت معه من دون أن يعلم أبي.. وأعطيته كل ما جمعته من مال.. وقِبل بذلك لمعرفته لنا..

الحقيقة صدمني بحديثه.. فهو لم يلمح لي أبداً عن أي شيء..

شعرت بأنني أحلم.. نظرت إلى وجهه الخائف وسألته:

- ولكن سوف يعلم أباك حتماً!

- لقد وعدني أبو مصطفى بأن يبقى الأمر سراً بيننا,

فهو لا يهمه سوى توفير المال.. وقد حصل عليه.. سأعود مسرعا لفراشي كي أتظاهر بالنوم قبل أن يعود والدي.. وسوف يظهر الأمر كما لو أنكِ هربتِ..

لا تقلقي.. سوف أتدبر الأمر..

لقد ضحى بوالده.. من أجلي..

رغم معرفته مدى الخطر الذي قد يتعرض له أبوه بسبب اختفائي وعدم إعادته لي.. لرجال أبي الفاروق..

فقط لأن قلبه طيب.. قلب طفل كبرت مواقفه قبل عمره..

من هول ما مرّ به من معاناة.. وكان حاضراً على مصائبي منذ البداية.. فعل ذلك.. لأنه شعر بمعاناتي كطفلة كانت يمر عمرها بعيداً عن أهلها..

لم أكن أعلم كيف أتصرف..

إنها فرصة العمر فعلاً.. الفرصة التي لطالما انتظرتها.. لم أفكر كيف ستكون.. وماذا سوف تحمل لي العواقب!

كل ما أريده هو دخول الحدود.. حدود بلدي..

وبعدها وليحدث ما يحدث.. المهم أن أتنفس هواءها..

لذلك.. وافقت..

صرخ أبو مصطفى طالباً مني سرعة الركوب في العربة الخلفية..

لم أتحمل فكرة أنني سوف أفارق يحيى مرة أخرى..

لقد تكرر مشهد إنقاذه لي وهروبنا معاً..

لكن المختلف هذه المرة..

أنه لن يرافقني.. سأستمر في الطريق وحدي..

شكرته كثيراً.. ثم ساعدني على الشاحنة..

التي كانت تعج بالأطفال الصامتين.. تخبرنا تعابير

وجوههم بأنهم مجبرون.. إلا أنا.. كنت الوحيدة بينهم التي تريد الذهاب..

لأن الفرق بيننا.. أنهم سوف يتركون وطنهم..

بينما أنا.. سوف أذهب إلى وطني..

أعطاني يحيى بعدما جلست.. قنينة ماء.. وحقيبة بها خبز وتمر.. ثم ودّعني وهو حزين.. وودعته..

انطلقت نحو المجهول مع انطلاق الشاحنة..

ووقف يحيى مودعاً.. حتى تلاشى تماماً وسط الظلام..

على الرغم من الضعف الذي يميز شخصية يحيى..

إلا أنه كان الشخص الوحيد الذي يشعر بي..

لا أعلم ما الذي سوف أفعله لو لم يكن موجوداً..

حتى صمته.. الذي يحل عليه عندما يعجز عن مساعدتي..

كنت قد اعتدت عليه..

ولكنه أحياناً.. كان يتخذ قرارات لا أتوقع حدوثها منه..

مثل قراره باقتحام غرفة أبي الفاروق وتحريري منها..

وكذلك مثل قراره هذا.. بتحريري من قبضة والده..

تعودي عليه.. يضفي عليّ نوعاً من الأمان لا أعلمه..

هكذا نحن..

بعض الأحيان.. يظهر في حياتنا أناس..

نتعود على وجودهم.. على مشاركتهم لنا للأحداث..

على الرغم من عدم جدواهم أحياناً..

إلا أنهم مهمون بالنسبة لنا..

بعض الأشياء البسيطة التي تعوّدنا عليها..

أهم من بعض الأشياء المهمة الجديدة..

وهذا ما كان هو يحيى بالنسبة لي..

نظرت إلى الأطفال الذين كنتم معهم..

كانوا مثل عمري وبعضهم أصغر مني..

تجربتي السابقة في ركوبي بين أطفال برفقة مهربين..

تخبرني بأن أفضل حل في هكذا رحلات طويلة..

هو النوم.. فالنوم هو خير وسيلة لمرور الوقت الممل..

خصوصاً أننا توقفنا لحاجة السائق الى النوم قليلاً كما أخبرنا..

وفعلاً.. عدلت موضع جلستي.. ومددت ذراعي النحيل تحت خدي.. وحاولت النوم.. ونجحت..

ملامسة سراب الوطن!

مرّ الوقت من دون أن أشعر..

استيقظت.. كانت الشاحنة تسير ببطء..

والشمس اقتربت من السطوع..

ووجدت الأطفال قد استيقظوا قبلي.. وحقيبتي بجانبي..

لكنها كانت مفتوحة! نظرت بداخلها.. فلم أجد شيئاً..

لقد أكلوا كل ما بداخلها من طعام..

اقتربت مني فتاة صغيرة جميلة..

تمكن الأرق من ملامحها اليمنية الجميلة.. فاجأتني بأنها

قد خبأت وراءها خبزة صغيرة.. احتفظت بها من أجلي..

كانت تنتظرني كي أستيقظ..

وقدمتها لي.. وابتسمت لها.. والحقيقة أنني لم أقوَ على مقاومتها.. فالجوع قد تمكن مني.. أكلتها كي أصمد..

شكرتها.. فمنذ مدة طويلة.. لم يعاملني أحد بمثل طيبتها..

سألتهم أين نحن الآن.. أخبروني بأنهم لا يعلمون شيئاً..

نظرت إلى آخر الشاحنة.. كان هناك قرابة العشرين كيساً..

بداخلها أوراق خضراء.. أشبه بالملوخية..

لم أعرف لماذا يحملونها معنا.. سألت الفتاة الصغيرة..

أخبرتني وهي تضحك:

- إنه القات(15)..

لم أفهم ماذا تقصد.. ولم أسألها لأنني لم أكن مهيأة للتفكير أصلاً.. لكنني عرفت فيما بعد.. مع مرور الأيام.. بأنه نبات ممنوع زراعته وبيعه في السعودية..

ويزرع بكثرة في اليمن.. لذلك يتم تهريبه وبيعه بأسعار مربحة..

واصلنا الرحلة.. وسط مقاومتنا لحركة الشاحنة المتعرجة التي تسير فوق طرق غير معبَّدة.. حيث كان يتعمد السائق إطالة الطريق والذهاب من مسارات بعيدة.. ليست عليها رقابة مشددة.. لذلك كانت المسافة تطول كما علمت من أحاديث الصغار المتذمرين.. بعضهم سبق وأن مر بهذه التجربة أكثر من مرة.. يتم القبض عليه ومن ثم يعود إلى اليمن.. ويكرر المحاولة!.. اندهشت من أحاديثهم حقاً..

توقفت الشاحنة الصغيرة!

نزل سائقها ومعه أبو مصطفى..

وأنزلونا منها.. وأجلسونا على الأرض.. تحت الظل الذي عكسته الشاحنة بعد ازدياد قوة الشمس..

في الجهة المقابلة لنا.. كان هناك شبك حديدي!

لقد كانت الشباك الفاصلة بين حدود اليمن والسعودية..

لقد كان يفصل بيني وبين العودة إلى بلدي.. شبك!

لم أصدق.. كنت أتطاير فرحاً وشوقاً للدخول..

وللعودة إلى أهلي.. الذين لا أعلم كيف هي حالتهم النفسية

بعد مصيبة خطفي منهم.. وغيابي عنهم كل هذه المدة..

قرابة الساعتين..

ثم وصلت سيارتان صغيرتان من خلف الشباك..

نزل منهما سائقان من الجنسية اليمنية كما بدا لي..

اقترب نحوهما أبو مصطفى.. وصافحهما من وراء الشبك..

وبعد تبادلهم السلام.. والضحكات.. وكذلك النقود..

علمت أنهم مهربون أكثر جرأة وخبرة من أبي مصطفى..

يحفظون المسارات الوعرة التي تمكنهم من الوصول إلى المدن السعودية القريبة من الحدود..

بدأوا بالقيام بعملية صعبة.. أخذت منهم وقتاً طويلاً.. محاولة خلق فجوة بالشباك الحديدية وكذلك بحفر مسار من تحتها.. قرابة الساعة.. نجحوا!

ثم طلبوا منّا الزحف كي نمر من تحتها!

وبالفعل مررنا.. وتجرحت أيادينا من الحجارة واتسخت ثيابنا أكثر مما كانت عليه.. ثم قام أبو مصطفى والسائق الذي معه بتسليمهم الأكياس التي تحتوي على القات..

وذلك بإلقائها من فوق الشبك.. وبعد أن اكتمل عددنا..

أصبحنا رسمياً.. نقف على الأراضي السعودية!

لم أكن مصدقة ذلك طبعاً.. شعرت بشعور غريب حقاً.. وكأنه أصابني دوار خفيف ثم اختفى..

تلك العوارض تحدث عندما يحصل لك شيء تحبه..

أو تتمناه.. ولم تكن تتوقع أن تحصل عليه.. أو يحدث لك..

قاموا بعد ذلك بتقسيمنا الى مجموعتين!!

كل مجموعة في سيارة.. لا أستطيع نسيان تفاصيل طريقة معاملتهم القاسية لنا..

كنا بالنسبة لهم.. مجرد أرقام.. لا نحمل إثباتات لهويتنا..

مجموعة أطفال يمنيين.. وكنت أنا بينهم السعودية الوحيدة!

ولكن لا أحد يعلم بذلك.. فحتى جوازي الأفغاني.. لم أعد أملكه..

شعرت بأننا معهم.. أشبه بالمواشي.. يدفعوننا بقوة ويصرخون كي يرهبونا.. ولا يترددون في ضربنا..

والكل خائف وينفذ ما يأمروننا به.. من دون نقاش..

فعلاً منظر محزن.. لا يستحقه أطفال لم يهنأوا بعد بطفولتهم..

من حسن حظي أنني كنت في مجموعة أغلبها فتيات..

جلست في السيارة بالمقعد الخلفي..

وكانت بجانبي تلك الطفلة الصغيرة الجميلة

التي خبأئت لي الخبزة..

أحسست بأنها شعرت بالأمان معي..

شعرت بذلك من خلال ابتسامتها لي.. سألتني ببراءة:

- إلى أين ذاهبين؟

حزنت كثيراً عليها.. فمثل عمرها الذي أعتقد أنه لم يتجاوز

الثماني سنوات.. استحالة أن تستوعب حجم المصيبة التي تعيشها.. يبدو أنها تحمل قصة مؤلمة.. إما أنها مخطوفة مثلي.. أو أن أهلها قاموا ببيعها مجبرين بسبب الفقر اللعين..

للأسف.. لم أملك سوى أن أكذب عليها..

فالكذب أحياناً.. في مثل هذه المواقف القاسية.. ينعش الأمل..

قلت لها بعدما ابتسمت.. ووضعت يدي على شعرها الناعم المتسخ من الأغبرة:

- إلى مكان جميل حبيبتي.. لا تقلقي..

بادلتني الابتسامة.. وأشك أنها فهمت كلماتي التي دائماً

ما تخرج مشوهة من فمي الحزين..

قامت بوضع رأسها عليّ كي تنام..

ولم أمنعها أبداً من ذلك.. فعلاً كانت جميلة.. كالعصفورة..

وقبل المغادرة.. حصل ما لم يكن بالحسبان!

شيء أفجعهم جميعاً.. صدمهم.. ولكنه أسعدني وحدي!

باغتتنا رجال حرس الحدود السعودي(16).. بسرعة مفاجئة!

ركب السائقان السيارتين وتفرقا بسرعة رهيبة.. بينما كان الهروب الأسهل.. لشاحنة المهرب أبي مصطفى..

القذر استطاع الهروب كما شاهدته من نافذة السيارة..

لقلة رجال الحرس المباغتين.. ولوجوده خلف شباك الحدود من الأساس..

لذلك، كانت المطاردة خلف السيارتين التي حملتنا..

أنا.. وباقي الأطفال..

كانت مطاردة أشبه بالأفلام الأجنبية.. بتلك المنطقة الوعرة.. وتحت أشعة الشمس اللاهبة..

كنا نصرخ جميعاً خائفين من سرعة السائق الذي كان يقود

سيارته كالمفجوع.. فالقبض عليه.. يعني ضياع سنوات عمره في السجن..

استمرت المطاردة قرابة النصف ساعة..

حتى أتى الدعم.. بمزيد من رجال حرس الحدود..

استطاعوا أن يوقفوا السيارتين.. وأعلن السائقان الاستسلام!

اقترب الأفراد بسرعة ملتفين حولهما..

وموجهين أسلحتهم نحو السائقين..

أذكر التفاصيل التي حدثت لسائقنا.. أشكال الأسلحة أصابتنا بالخوف.. بكينا جميعاً من المشهد..

أخرجوا السائق من السيارة ومددوه على صدره بالأرض..

وصادروا سلاحه الذي يملكه.. ثم قيّدوه وأركبوه إحدى سياراتهم مع السائق الآخر.. وتحركوا فوراً..

ثم تعاملوا معنا بأسلوب أقل حدة.. كانوا رحيمين بنا..

فهم يعلمون حسب خبرتهم بالمواقف الكثيرة المماثلة التي يمرون بها.. بأننا ليس لنا حول ولا قوة..

طالبوا الأطفال بالهدوء وأخبرونا بأنهم لن يضروا أحدا منّا..

وفعلاً.. كانوا صادقين.. بدأ الأطفال بالنزول..

ثم قاموا بمصادرة أكياس القات..

نظرت إلى الفتاة الصغيرة التي بجانبي..

كانت لا تزال نائمة..

حاولت إيقاظها ولكنها لم تتجاوب معي!

كررت المحاولة.. ولم تصدر أي ردة فعل!

بدا لي أن الأرق قد تمكن منها.. لم تمر دقيقتين..

حتى أصابني القلق.. وطلبت منهم المساعدة..

انتبه أحدهم لصراخي واقترب.. طلب مني النزول..

ونزلت بالفعل وأنا أنظر إليها..

حاول أن يوقظها.. لم تستجب.. ثم تحسس رقبتها..

قام بحمل جسدها الصغير بعد ذلك.. ثم نزل من السيارة..

ومن ثم قال لزملائه بكل هدوء:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد فارقت الحياة!

لم أصدق ما قاله.. أصابني الجنون فجأة..

ركضت نحوه وسحبت الطفلة من بين ذراعيه..

وسقطت منه على الأرض.. كانت جثة هامدة!!

بكيت بحرقة وأنا أصرخ وأطالبها بأن تجيبني وتستيقظ..

كان الجميع حزيناً على المنظر.. والأطفال جميعهم يشاهدون.. وهم مصدومون.. بعضهم يبكي والبعض الآخر يشاهد وهو صامت..

أبعدوني عنها بصعوبة وقاموا بتغطيتها بلحاف وحملوها..

لم أصدق.. كيف لهذا الجمال أن يموت هكذا؟

ما الذنب الذي ارتكبته كي تكون نهايتها بهذا الشكل المأساوي؟ بكيت وليس أسوء من البكاء في أجواء حارة..

أركبونا متفرقين في سياراتهم التي كانت مكيفة..

ما هوَّن علينا شراسة الطقس والموقف..

قدموا لنا الماء..

ثم تحركوا مسرعين الى جهة لا نعلم عنها شيئاً..

كانت المرة الثانية التي حزنت فيها على فراق أناس..

لم أقضِ معهم وقتا طويلا.. منذ اختطافي!

الضابط وزوجته.. وهذه الطفلة البريئة..

كنت فقط حزينة على حالتي.. ووضعي الذي وصلت إليه..

ولكن هذه الطفلة استطاعت أن تحرك بداخلي أشياء كثيرة مختلفة.. ربما لأنني شاهدتها تودع الحياة أمامي..

لأول مرة في حياتي.. يحدث لي أن يفارق أحدهم حياته

وهو بجانبي..

تمكن بعدها مني الإرهاق بشكل كبير..

لا أذكر المدة التي قضيناها في الطريق المتعب..

حتى وصلنا إلى مركز خاص بحرس الحدود السعودي..

رأيت العلم السعودي يرفرف.. فوق المركز..

فرحت كثيراً وابتسمت.. شعرت بأنني تنفست أخيراً..

نزلنا وكان معظم الأطفال مرعوبين.. إلا أنا كنت مطمئنة بأنني وصلت الى هذا المكان..

لقد كنا بالنسبة لهم.. مجهولي الهوية.. لذلك من الصعب أن يتعرفوا علينا فقط من خلال أسئلتهم لنا..

قاموا بوضعنا في غرفة مكيفة.. ثم أحضروا لنا الطعام..

أكلنا بطريقة مضحكة.. كأننا لم نرَ الطعام منذ فترة..

لكن تلك الطريقة المضحكة.. لم تضحكهم.. كانوا حزينين لوضعنا حقاً.. فوضعنا كأطفال.. يجعل الصخر يدمع..

فما بالكم بالبشر؟

انتهينا من تناول الطعام.. وبقي حزني على تلك الفتاة

لم يفارقني.. ولم يفارق باقي الأطفال..

تركونا في الغرفة.. فأجبرنا الأرق وكذلك الهدوء المسيطر على المكان.. على النوم من دون إرادة.. كانت أجمل نومة..

يكفي أنها على أرض وطني من بعد غيبة..

بعد مضي قرابة الخمسة أيام..

لم أكن أعرف ماذا كان ينتظرنا!

حتى أتى ذلك اليوم.. الذي تم أخذ فيه معلومات منا..

سألونا عن أسمائنا وعن أعمارنا وعن كيفية وصولنا..

كان مهم بالنسبة لهم توثيق ذلك..

حاولت أن أخبر أحدهم عن وضعي الخاص..

لكنه لم يستطع أن يفهم حديثي أبداً لعدم وضوح كلماتي..

كان يسكتني بعطف وكأنه يشعرني بأنه يفهمني..

وبأن كل شيء سوف يكون على ما يرام!

أصابني التوتر كثيراً.. توجهت نحو شخص آخر..

وحاولت أن أشرح له.. لكنه طلب مني الجلوس..

حتى صرخت بصوتٍ عالٍ من القهر.. ولاحظوا ذلك!

اقترب أحدهم.. وهو يبتسم قاصداً تهدئتي..

طلبت منه أن يسمعني.. وسمعني فعلاً.. لكنه عجز على فهمي.. تمنيت حينها لو أن يحيى كان موجودا معي.. ليشرح

لهم بسهولة ما أريد قوله.. لقد افتقدته جداً في هذا الموقف..

دقائق صمت.. حتى خطرت لي فكرة!!

طلبت منه ورقة وقلما.. وشرحت له طلبي بيدي..

وفهم ما أريد!

لكنه للأسف كان يظن أنني لست سوى طفلة صغيرة..

تريد اللهو واللعب.. فرد عليّ مبتسماً:

- اهدئي حبيبتي.. سوف نحضر لكِ كل شيء..

أصبت بإحباط من طريقة رده!

أريد أن أكتب لهم من أنا.. وما هي جنسيتي الحقيقية..

لكنني فشلت في إقناعهم..

كالعادة بدأت بالإشارة إلى صدري وبترديد بأنني سعودية..

وكان يجيبني أحدهم من دون أن يفهمني:

- نعم نعم نحن بالسعودية وسوف نعيدكم قريباً..

كنت لا أتوقف عن المحاولة..

حتى لاحظوا عنادي كثيراً وارتفاع إزعاجي..

لم يعجب ذلك أحدهم.. فطلب مني الهدوء بطريقة حادة

بعض الشيء..

فما كان مني إلا الاستجابة.. والبكاء عجزاً للأسف..

وبعد الفراغ من جمعهم للمعلومات.. قدموا لنا الغداء..

ومر اليوم بكل خذلان..

حدثت نفسي وأنا حزينة.. وقلت وأنا شاردة البال..

سأواصل طلبي في الغد.. وسوف أكتب لهم ما أريد إيصاله..

عندما يقتلون طفولتنا

عليهم ما يستحقون!

صباح اليوم التالي.. كان صادماً بالنسبة لي..

أركبونا سيارات.. وقاموا بتسليمنا إلى جهة تابعة للدولة اليمنية!

لم نفهم ما الذي يحدث.. ولكنني جنّ جنوني حينما رأيت ذلك..

صرخت وقاومت.. وكنت أحاول أن أشرح لهم..

لكنهم تعاملوا مع حالتي على أنني لست سوى طفلة لا ترغب في الرجوع إلى بيتها.. وترغب في الدخول بحثاً عن الرزق بأساليب غير مشروعة!

أركبوني بالقوة مع باقي الأطفال وأغلقوا الباب..

تلك اللحظة أذكرها جيداً..

وكأنهم أغلقوا باب الأمل الأخير في وجهي!

في تلك اللحظة.. أحسست فعلاً بالظلم.. فهمت عندها

ما هو معنى القهر.. وما هو معنى العجز.. والخسارة حقاً!

شعرت بأنني خسرت كل شيء..

خسرت نفسي.. وطفولتي.. وبراءتي..

خسرت حبي للحياة.. خسرت عائلتي.. والأهم.. وطني..

مؤلم أن تخسر وطنك مرتين!

مرة متنكرة رغماً عني.. ومرة أخرى غير معترف بي!

وفي كلتا الحالتين.. مجبرة..

قد تستغربون من طريقة تفكيري..

تجاه الأشياء التي خسرتها.. وأنا في ذلك العمر..

لكن ما حدث لي.. جعلني أكبر بعشر سنوات على عمري!

فالهموم والكوارث والحزن والفقد.. وأشياء كثيرة سيئة..

كلها أمور تفقدك صغر عمرك.. وتجعل منك شخصاً يفوق عمره الحقيقي..

شاهدت أطفالاً كثر.. أطفال في العمر فقط.. ولكن..

تصرفاتهم تشعرك بأنهم كبار!

ويحيى مثال على ذلك كما أخبرتكم..

مثل هذه التغيرات.. لا تحدث إلا بعد مرورهم بظروف

تفوق تحمل من تقع عليه..

لذلك بدأت أشعر بتلك التغيرات عليّ..

شعرت بأنني عنيفة في بعض الأمور.. حتى ردود فعلي العاطفية تجاه المواقف التي تحدث لي.. تغيرت!

أصبحت أقوى.. بل الحقيقة أنني أصبحت أقسى..

مؤلم ما أقوله بحق نفسي.. لكنها الحقيقة..

طبيعة النفس البشرية.. أن تتعلق بمحيطها التي وجدت نفسها فيه.. المحيط الذي لم تختَره.. لذلك تجدها تتعامل معه كما لو أنه واقعها الوحيد.. والصحيح..

وعند حصول أي اختلاف.. جذري.. تجد الرهبة تحل عليها.. والرفض.. والخوف المفرط.. لكن مع مرور الوقت.. يخف كل هذا شيئاً فشيئاً.. من دون أن تشعر النفس البشرية بذلك.. وتتأقلم مع ذلك التغير تدريجياً..

حتى الفقد.. الموت.. مهما كان مؤلماً لشخص ما..

تكون ردة الفعل الأولى عنيفة جداً.. وتستمر لفترة..

حتى تشعرنا بكره الحياة ومن عليها..

ومع مرور الوقت.. تنخفض جرعات البكاء!

وحتى ساعات الحزن!.. وحتى ساعات الامتناع عن الطعام!

يمر الوقت.. ثم تتولد قناعة خفية نخشى مصارحة أنفسنا بها..

بأن ما حدث أصبح ماضيا.. وبداخلنا ما يخبرنا بأننا تعوّدنا على وضعنا الجديد.. حتى لو كنا نرفضه!

والأمثلة كثيرة على تقبل النفس البشرية للتغيرات الجذرية التي قد تطرأ عليها من دون أن تريد ذلك..

هذا ما حدث معي للأسف!

على الرغم من تعلقي بوالدتي وأهلي.. إلا أن المدة الطويلة التي قضيتها بعيدة عنهم.. جعلتني لا أحمل نفس الخوف الذي حملته في البداية.. ولا حجم القلق نفسه تجاه ما يخبئه لي المستقبل..

لكن رغبتي في العودة لم تُمحَ.. لكنها لم تكن حاضرة بكل تفاصيل دقائق يومي.. كما كانت من قبل..

يبدو أن المصائب التي مررت بها.. والتجارب الغريبة التي عشتها.. كانت كفيلة بتلك التغيرات بداخلي..

مر الوقت من دون أن أشعر..

حتى وجدت لوحة أذكرها جيداً.. كتب عليها..

حرض(17)!!

حتى توقفت السيارة عند مبنى كُتب عليه كما أذكر..

(مركز الحماية الاجتماعية للطفولة)(18)

استقبلتنا مجموعة من الأشخاص..

وتعاملوا معنا بالابتسامة وبكل عطف..

أدخلونا إلى المقر, وأجلسونا كي نرتاح من عناء الطريق..

وفروا لنا وجبة الغداء بعد الظهر..

ومن ثم تركونا كي ننام.. لم أصدق أنني قضيت ليلة البارحة في السعودية.. واليوم أقضيها في اليمن!

كم تمنيت لو أن تطول البارحة.. ولم يأتِ اليوم..

انتهت الليلة كغيرها من الليالي.. وحلّ الصباح..

الحقيقة كانوا مجتهدين بالاهتمام بنا..

على الرغم من قلة إمكاناتهم..

قاموا بأخذ معلوماتنا.. وأخذ الصور لنا..

كي يوثقوا كل شيء.. حاولوا معنا معرفة عائلة كل طفل..

لكنهم لم ينجحوا إلا مع ثلاثة أطفال فقط!

البقية رفضوا الاعتراف.. كانوا خائفين من العقاب!

أو من العودة إلى جحيم القسوة والفقر.. ربما..

عندما اقترب مني أحدهم بعد انتهائهم من تصويري..

أخذت من يده القلم بقوة.. وطلبت منه ورقة بعدما أشرت إلى دفتره الذي كان يحمله..

ابتسم متفاجئاً ولم يتردد من إعطائي إياه.. وكأنه حينها أعطاني مفتاح باب الجنة..

دمعت عيناي كثيراً.. وكتبت بخطي المضحك:

(أنا طفلة سعودية مختطفة.. أرجوكم ساعدوني)..

ثم أعطيته الورقة وأنا أمسح دموعي..

قرأها.. ثم نظر إليّ باستغراب!

قال لي:

- سعودية!

أشرت له برأسي بأن ما يقوله صحيح..

نادى زميله في المركز وطلب منه قراءة الورقة وأخبره بما أقوله.. تعجب زميله من ذلك.. ورأى دموعي.. لكنه لم

يستوعب ما قلته.. حتى سألني:

- سعودية!.. وما الذي تفعلينه هنا بين الأطفال اليمنيين؟

أشرت إلى الورقة وبالتحديد الى كلمة «مخطوفة»..

سألني عن عنواني بالسعودية..

ولكنني للأسف أخبرته بأنني لا أعرف شيئاً!

عندها.. طلبا مني الهدوء حتى يبحثا عن حل لمشكلتي..

ويتأكدا من صحة حديثي من عدمه..

ثم أخذا معلوماتي..

وكتبت لهما على الورقة اسمي الحقيقي..

وكذلك اسمي الذي دخلت به إلى اليمن بطريقة نظامية (إيمان)..

استغرب الرجل من ذلك.. لكنه فضل كتابة اسمي الذي تحمله أوراقي الرسمية.. وطلب مني ألا أقلق أبداً..

شعرت حينها.. بأن هواءً نظيفاً ولذيذاً قد دخل إلى شعبي الهوائية..

تنفست الصعداء كما يقولون..

حمدت ربي كثيراً.. فقد استطعت أن أفعل ما عجزت

عن فعله في بلدي.. وهذا التحول مهم جداً..

ولكن.. ما يجعلهم عاجزين بعض الشيء..

هو أننا مجهولو الهوية أمامهم..

ويعتمدون في المقام الأول على إجاباتنا.. التي قد تكون خاطئة بسبب عدم تعاون الأطفال معهم..

وهم لا يملكون سوى تهيئة البيئة النفسية المناسبة للأطفال, ومن ثم يتواصلون مع ذويهم في حال قدومهم.. ويقدمون لهم النصائح, قبل أن يسلموا كل طفل إلى أهله.. ويحتفظون بالمعلومات الأقرب إلى الصحة..

وبالفعل.. سلموا الأطفال الثلاثة المتعاونين إلى عائلاتهم,

بعد مرور أسبوع تقريباً من حصرهم لمعلوماتهم..

ما أدخل الراحة إلى قلبي.. وجعلني أتوسم خيراً..

على الرغم من أنه لم يطرأ أي جديد على حالتي!

مرّ على تواجدي قرابة العشرة أيام!

في ذلك المكان البسيط.. وهم يطلبون مني الصبر..

ويقدمون لي الأمل كي أهدأ..

حتى أتى ذلك اليوم الذي نُحت نحتاً على ذاكرتي!!

دخل أحدهم علينا في غرفتنا المخصصة لنا..

وقال وهو يبتسم فرحاً:

- إيمان.. مبروك.. لقد توصلنا إلى عائلتك..

كدت أفقد وعيي.. لم أستوعب ما قاله لي!!

هل أنا أحلم؟ وكنت أجيب نفسي.. أرجوك قل لا..

قمت من مكاني والفرحة لا تسعني.. ولا تحملني..

مد يده لي وأخذني وهو يمسح على رأسي..

وأنا أقاوم دموعي وتسارع نبضاتي.. وأسرع في خطواتي..

وسط أحد الممرات القصيرة..

التي شعرت حينها بأنه أطول ممر قد مررت به في حياتي..

أريده أن ينتهي.. وبالفعل انتهى..

أدخلني غرفة!

لوهلة فقط.. شعرت وكأن ظلاما أسود حل عليّ..

وأخفى كي شيء حولي!!

سوى وجه ذلك الشخص الذي ظهر أمامي!

والد يحيى!!

شهقت شهقة كادت تودي بحياتي..

آخر ما كنت أتوقعه أن ألتقي به مرة أخرى!

رجعت إلى الخلف وأنا مذعورة.. وصرخت وأنا أبكي.. وكدت أهرب.. لولا أن ذلك الشخص أمسكني وحاول تهدئتي..

القذر.. علمت فيما بعد أنه قد وصله خبر القبض على مجموعة أطفال في الأراضي السعودية.. وكان يعلم أن عودتهم حسب خبرته.. سوف تكون في هذا المركز.. وظل يراجعهم كل أسبوع لعل وعسى أن يجدني.. فأنا ثمن عتق رقبته من العصابة الأفغانية هناك..

لقد أخبر المشرفين بأنني زوجته الأفغانية.. وأنه تم خطفي من عصابة مجهولة.. وظل يبحث عني حتى وجدني..

وأثبت ذلك لهم من خلال عقد زواجنا وكذلك من خلال جوازي الأفغاني الرسمي.. الإثبات الوحيد الذي يفيد بهويتي!

فما كان أمامهم إلا أن يصدقوا ما قاله..

فحالات زواج القاصرات(19) مألوفة بعض الشيء لديهم..

على الرغم من محاولة محاربتها.. وتعنيف الزوجات كذلك.. لا يستطيعون التدخل.. فتعاملوا مع حالتي على أنها حالة عائلية خاصة.. يتم حلها بيننا.. خصوصاً أنهم علموا بعد رؤيتهم لهويتي أنني لست يمنية.. وكذلك أنني لست كما أخبرتهم بأنني سعودية!

ظنوا أنني لست سوى طفلة كانت تكذب.. كي تعود للعمل في المملكة!!

وللأسف.. أنهوا أوراقي.. وسحبني ذلك الوغد بالقوة..

وسط حزنهم على حالتي.. لكنهم لا يستطيعون عمل أي شيء لي..

كان يقبض على يدي بكل قوته.. حتى شعرت بتنمل في أطراف أصابعي.. لم أكن مصدقة وقتها لما يحدث لي!!

ولم يصدق عينيه أنني أصبحت بحوزته مرة أخرى..

فأنا.. ثمن نجاته.. ثمن حياته!

أركبني السيارة في المقعد الأمامي.. ثم أغلق الباب..

ركب الى جانبي وصفعني كثيرا على وجهي..

حتى شعرت بتخدر خديّ وفمي.. وبكيت بحرقة بالغة..

وقاد سيارته بشكل أرعن..

شاهدت التناقضات في وجهه.. كان الفرح والغضب يتطايران من عينيه.. والحقيقة.. أنني كنت خائفة..

بل مرعوبة.. ولكن الخذلان.. كان الطاغي على كل مشاعري حينها..

بعد مدة من الوقت المقلق..

وصلنا إلى منزل في وسط حي مكتظ بالمنازل القديمة..

لم أره من قبل.. ولم أعلم أين يقع بالضبط..

أنزلني بنفسه.. ثم أدخلني إلى المنزل..

مفاجأة أخرى كانت في انتظاري!

أول ما وقعت عيناي..

كان على ابنه يحيى..

الذي كان يقف أمامي والى جانبه امرأة!!

إنها زوجة والده الذي أخبرني عنها..

صُدم من رؤيتي.. وابتسمت عند رؤيته رغم ألمي..

لم يصدق عينيه أنني أقف أمامه..

ولكن صدمتي تحولت وأصبحت أكبر بكثير من صدمته!!

صُعقت.. عندما وقعت عينيّ على يده!

كفه الأيمن غير موجود!!!

شعرت بدوار ولوعة.. ولم أستوعب ما شاهدته..

عندها.. تحدث والده باستهزاء بعدما أغلق الباب وترك يدي:

- أرأيت أيها الخائن.. لقد خسرت كفك.. وخسرت حرية إيمان أيضاً.. أتمنى أنك تعلمت الدرس جيداً.. وتذكر.. بأنه تبقى لك كفاً أخرى.. سوف تلحق بأختها إن تكررت حماقاتك وخيانتك لوالدك..

لم أصدق ما سمعته.. ومن دون أي شعور..

سقطت مغشية..

كيف لأب أن يفعل بولده كل هذا؟

هل يعقل أن قسوة القلب توصله لأن يقطع كف ابنه؟!

لقد حدث ذلك.. للأسف..

لم أستيقظ إلا بعد مدة من الوقت.. بسبب صوت قوي!!

تبعه صراخ زلزل المنزل!

صوت المرأة.. زوجة والد يحيى!

وجدت نفسي ممددة على سرير.. وجسدي يؤلمني!!

ما جعلني مذهولة.. بأن ملابسي لم تكن كما كانت من قبل!

علمت أنني تعرضت لمحاولات انتهاك!..

ولن أخوض في تفاصيل حالتي أكثر!!

صرخت بقوة وبكيت بحرقة.. ولكن صراخ المرأة المتكرر الذي لم ينقطع.. جعلني ألملم نفسي وأتحامل على ألمي.. وأندفع نحو مصدر الصوت الذي كان يشير الى أنه يصدر

من الصالة الصغيرة..

خرجت ثم توقفت مرعوبة!!

وجدت المرأة تبكي وتصرخ وهي تضرب بيديها

على صدرها بقوة..

ويحيى يقف صامتاً وكأنه جماد وفي يده اليسرى.. سلاح!

بينما كان والده ممدداً مضرجا بدمائه التي غطت

أرضية الصالة!.. ويلفظ أنفاسه الأخيرة!!

لقد أطلق النار عليه من سلاح والده!.. يحيى!

انتقاماً لي!

أصابني الجنون عندها.. حلت عليّ الرعشة..

قدماي كانتا ترتعشان وتضربان بعضهما..

ونبضاتي تكاد تنفجر.. ولكنني من دون إرادة..

وجدت نفسي أندفع نحو يحيى.. لقد سحبت السلاح من يده! وكنت أبكي بحسرة وأصرخ عليه.. لماذا ورَّط نفسه في هكذا مصيبة..

لم يقطع صوت الصراخ في صالة المنزل..

إلا صوت طرق الباب!

توجهت الزوجة وهي تبكي نحو الباب.. وفتحته..

لقد كان رجال الشرطة اليمنية ومعهم الكثير من الجيران..

فصوت الطلقة.. أربكتهم وجعلتهم يطلبون النجدة..

وكذلك صوت الصراخ.. كان كفيلاً باستنتاج أن هناك مشكلة كبيرة قد حدثت في الداخل..

ليس هذا المهم.. بالحدث..

المهم.. هو مصيبتي!.. السلاح!!

لقد كنت أحمله بيدي بعدما سحبته من يد يحيى!

وهذا ما جعل رجال الشرطة يقبضون عليّ أولاً..

عندي رؤيتهم لي مباشرة!

أصابني الهلع.. والخوف بشكل لم أشعر به من قبل..

صُعق يحيى حينها.. وحاول التدخل كي يبعد أيديهم عني..

وهو يصرخ: أنا من قتل والدي.. وليست هي..

فما كان منهم إلا أن يقبضوا عليه أيضاً..

وعندما سألوا الزوجة ماذا حدث.. قالت وهو تبكي:

- هما السبب.. هما سبب خراب بيتي..

فوضعوا القيود في أيدينا.. وأركبونا سيارة الشرطة..

وتوجهوا بنا إلى مقرهم..

كنا نبكي معاً.. فنحن لا نستحق هذا المكان..

ولا نستحق تلك القيود.. وأن نعامل كأننا مجرمان..

فمثلنا.. لا يستحق إلا أن يتعلم ويضحك ويمرح ويلعب..

ولكنه ظلم البشر.. ونتائج جشاعتهم..

جعل أطفالاً في عمرنا بنظر القانون.. قتلة!

إن مثل والد يحيى لا يستحق سوى الموت..

دمر حياتي وحياة ابنه, وحياة الضابط الطيب وزوجته..

وحياة الكثير من الأطفال.. وحتى بناته اللاتي باعهن تحت مسمى الزواج.. تمنيت الانتقام منه فعلاً.. ولكن ليس بهذه الطريقة..

وصلنا إلى مركز الشرطة..

نزلنا من السيارة.. وتم التحقيق معنا..

أنا ويحيى نقول شيئاً.. وبصمات السلاح تقول شيئاً آخر..

وكان ذلك.. آخر لقاء بيني وبين يحيى المسكين..

فأنا في سجن وهو بسجن آخر.. ولا تجمعنا سوى التهمة..

أحد المحامين المتطوعين لحماية الأطفال..

تطوع مشكوراً.. بالدفاع عنّا..

للأسف.. القضية كانت تأخذ منحنى صعبا للغاية..

وما زاد صعوبتها.. هي شهادة زوجة والد يحيى!

كانت تصر على اعترافاتها.. بأنني أنا القاتلة.. وبأن يحيى قد خطط معي في طريقة القتل بعدما سلمني السلاح!!

كانت تريد التخلص منّا سوياً.. كي تنعم بالورث وحدها!

هذا ما أخبرني به المحامي الطيب..

آمنت حينها.. بأنه على الرغم من كثرة الناس الطيبين في

كل البلدان مثل يحيى.. إلا أن حظي السيئ يجعلني لا أقابل في طريقي الوعر سوى نوعية من البشر تمكَّن منها الجشع.. وتشربت بعروقهم القسوة؟!

عندما جلس معي المحامي للاستماع لي في البداية..

كان يفهم عليّ بصعوبة..

وكنت أكتب له الشيء الذي لا يفهمه كي أواصل حديثي..

أخبرته قصتي بالتفاصيل.. وكان يستمع لي..

ولكن لم ألاحظ على ملامحه ردة فعل تخبرني بأنه كان يصدقني.. لا ألومه الحقيقة..

خصوصاً أنني لا أعلم عن منزلنا.. سوى اسم المدينة واسم الحي.. فقط.. ولا أحفظ أي أرقام للتواصل مع أهلي..

بالإضافة إلى أنني كنت أرفض أن يصل إليهم أصلاً!!

فعندما كان يطلب مني اسمي الحقيقي كاملاً..

كنت أرفض!

معللة ذلك أن بقائي مختطفة في نظر عائلتي..

يجعل الأمل معهم مستمراً.. وأما معرفتهم بنهايتي..

لن يعطيهم سوى القهر والبكاء والحسرة..

لذلك قررت.. ألا أتسبب في قهرهم مرتين..

سأنتظر نتيجة القضية.. وعليه.. إن كسبت البراءة فمن المؤكد سوف أسعى للوصول إليهم.. وإن أخذت الإدانة..

فوداعاً!

أعلم أن هذا القرار قد يغضب غالبيتكم..

لكنني أنا من عايش هذه التجربة بأدق تفاصيلها..

لذلك مهما تعاطفتم معي..

لن تشعروا بالفظاعة التي تنهش بداخلي..

أخذت ذلك القرار..

عندما شعرت بصعوبة وضعي في هذه القضية..

وأنني سوف أكون قيد التحقيق ومن ثم المحاكمة..

وقد يأخذ ذلك مني الوقت الطويل كما أخبرني المحامي..

حينها.. تجرأت وطلبت منه طلباً استغرب منه!

ووعدني خيراً..

وهو أن ينقل قصتي لأحد الكتّاب المهتمين بهكذا

قضايا إنسانية.. ويؤمن بها..

وأن يوصلها بدوره إلى القرّاء.. كما لو أنني أنا التي كتبتها!

كي تكون دافعاً للحل.. لكثير من العقبات القاسية التي قد وقعت بها..

كي لا يقع بها مستقبلاً.. أطفال غيري..

رافضة كل الرفض أن يخبره المحامي بنهايتي أنا ويحيى!

كي لا يرتسم الحزن على وجوهكم الجميلة..

التي لا تستحق إلا الابتسامة..

أتمنى أن ما تمنيته قد حصل فعلاً..

فمن يدري.. ربما أنا بينكم الآن..

وقد حصلت على نسختي من الرواية.. موقعة.. وقرأتها..

ربما.. وربما لا شيء من هذا كله!

اسمي المزور «إيمان»

2007/7/24 !

اقرأ بالخلف!!

ولله الحمد..

حصلت تطورات أمنية كثيرة وجذرية لسد هكذا ثغرات..

قد تمكن الأشرار من استغلالها..

فنظام البصمة وكذلك العين.. والعديد من الإجراءات الأمنية الصارمة.. وضعت حداً كبيراً لهكذا تلاعبات من قبل العمالة الوافدة.. خصوصاً القادمين الى الحج والعمرة..

وأصبحت المطارات وكذلك الحدود البرية أكثر أمناً وحذراً..

كي تنعم البلد بالأمن وكذلك البلدان الأخرى.. بشكل أكبر..

---

(1) مدينة الباحة: عاصمة منطقة الباحة ومقر الإمارة, ومن أهم مدن السعودية سياحياً وزراعياً.. تقع في الجنوب الغربي بالمملكة.

(2) توجد في جنوب مدينة جدة بعض الأحياء القديمة جداً التي يسكنها الكثير من الأجانب من الجنسيات الإفريقية والآسيوية.. إهمالهم بصيانة منازلهم وغيرها من الأمور.. يجعلها في وضعية غير جيدة وتشكل خطرا على البيئة أحياناً.. وأحياناً وهو الأخطر.. يستغل ذلك بعض ضعاف النفوس باحتواء المخالفين لنظام إقامة الحج والعمرة.. بشكل يضر

بالمكان.. اجتماعاً وصحياً وأمنياً...

(3) لفترة طويلة.. واجهت الحكومة السعودية مشاكل كثيرة بالتعامل مع مخالفي الإقامة النظامية للأجانب القادمين للحج أو العمرة.. معظمهم يستغلون انتهاء تصريح الزيارة الدينية ويتهربون من العودة إلى بلادهم بحثاً عن العمل.. والكثير من هذه الفئة يتجه للأعمال الخطيرة نظراً لعدم نظامية وجوده.. فتجدهم إما أن يعملوا بالتسول أو السرقة أو بيع المواد المخدرة أو حتى بالخطف وغيرها من الأمور التي تضر الأمن بالبلد.. لذلك خصصت الجهات المسؤولة الكثير من الوقت والمال لتقليص هذه المشكلة.. أمثلة على ذلك:

خبر صحفي:

خلال مداهمتها لأحد الأحياء بمدائن الفهد بجدة تمكنت شرطة محافظة جدة من القبض على 4 حالات جنائية، كما قام أكثر من 800 مخالف لأنظمة الإقامة بتسليم أنفسهم لضباط وأفراد شرطة محافظة جدة، وذلك بعد منتصف الليل من مساء أول أمس، وتأتي هذه الحملة ضمن الحملات المستمرة التي تقوم بها شرطة محافظة جدة لأحياء جدة والتي حققت إنجازات أمنية خلال هذه المداهمات التي تأتي بتوجيه من مدير شرطة محافظة جدة وبمتابعة من ضباط وأفراد شرطة محافظة جدة.

المصدر: صحيفة الرياض

السبت 16 شعبان 1427هـ - 9 سبتمبر 2006م - العدد 13956

خبر صحفي آخر:

قامت شرطة محافظة جدة يوم امس بحملة مداهمة واسعة شملت (13) منزلاً بحي العزيزية بجدة تم خلالها القبض على أكثر من (563) من المخالفين لأنظمة الإقامة بينهم (8) حالات مطلوبة جنائياً وكذلك حالات

سكر وترويج منشطات وأعشاب جنسية ودعارة كما تم ضبط عدد من الأفلام الإباحية التي يروج لها عدد من المتخلفين.

المصدر: صحيفة الرياض

الجمعة 11 جمادى الآخرة 1427هـ - 7 يوليو 2006م - العدد 13892.

(4) (هناك ملايين الأطفال يعملون لمساعدة أسرهم بطرق لا تنطوي على ضرر أو استغلال. ومع ذلك، تشير تقديرات اليونيسف إلى أن هناك حوالي 150 مليون طفل تتراوح أعمارهم بين 5 أعوام و14 عاماً في البلدان النامية، وحوالي 16 في المائة من جميع الأطفال في هذه الفئة العمرية، ينخرطون في عمالة الأطفال. وتقدر منظمة العمل الدولية أن هناك نحو 215 مليون طفل دون سن 18 عاماً يعملون ويعمل كثير منهم بدوام كامل، في جميع أنحاء العالم. وفي أفريقيا - جنوب الصحراء الكبرى يعمل واحد من كل 4 أطفال تتراوح أعمارهم بين 5 أعوام 17 عاماً، مقارنة بواحد من كل 8 أطفال في آسيا والمحيط الهادي وواحد من كل 10 أطفال في أمريكا اللاتينية.

وعلى الرغم من أن الأرقام الاجمالية تشير إلى أن الفتيان المنخرطين في عمالة الأطفال أكثر من الفتيات، إلا أن العديد من أنواع الأعمال الذي تنخرط فيها الفتيات غير واضحة للعيان. وتشير التقديرات إلى أن حوالي 90 في المائة من الأطفال الذين يعملون في المنازل هم من الفتيات.

وعلى الرغم من أن انتشار عمالة الأطفال قد تراجع في السنوات الأخيرة في كل مكان عدا أفريقيا - جنوب الصحراء الكبرى حيث تزايد فعلياً، فإن عمالة الأطفال لا تزال تضر النمو البدني والعقلي للأطفال واليافعين، وتؤثر على تعليمهم.

(المصادر: اليونيسف، 2011، وضع الأطفال في العالم وصفحة معلومات الأطفال على صفحة عمالة الأطفال على الموقع الإلكتروني لليونيسف)

(5) بسبب هذه التجاوزات الخطيرة.. واستغلالها من قبل البعض للإضرار بالأمن.. حصلت تغييرات مهمة لتفادي مثل تلك التجاوزات.. حيث:

كشفت المديرية العامة للجوازات السعودية لـ«الشرق الأوسط»، على لسان أحد مسؤوليها، تطبيقها نظام البصمة الإلكترونية على الزوار القادمين لأداء فريضة العمرة في رمضان، منذ بداية فبراير (شباط) الماضي.

وقال العميد محمد الأسمري المدير العام لجوازات منطقة مكة المكرمة إنه تم تركيب وتشغيل أجهزة تسجيل نظام البصمة الإلكترونية داخل مطار الملك عبد العزيز الدولي في جدة (غرب) لأخذ بصمات القادمين سواء للعمرة أو للعمل والإقامة، موضحاً وجود خمسة مواقع داخل المدينة للقيام بهذا الإجراء.

وأوضح العميد الأسمري، خلال حديثه لـ«الشرق الأوسط»، أن تطبيق نظام البصمة سيسهم في تقليل أعداد المتخلفين عن العودة الى بلدانهم بعد انتهاء فترة التأشيرة الصادرة لهم من أجل العمرة، مضيفاً «أن عملية أخذ البصمة تستغرق ثواني قليلة، وساعدنا في إنهاء إجراءات الدخول للمعتمرين بشكل يسير وسلس».

وأضاف «بالمناسبة، نحن منذ شهر فبراير الماضي أصبحنا نطبق النظام ليس على صعيد المعتمرين فقط، ولكن بالنسبة للإخوة المقيمين، وكذلك لمن يتم ترحيلهم، وبمجرد أخذ بصمة الفرد تنتقل آلياً إلى إدارة الضبط الخارجي في المديرية العامة».

وأكد مدير عام الجوازات في منطقة مكة المكرمة، والتي تستقبل مع باقي محافظاتها نحو 4 ملايين معتمر خلال شهر رمضان المقبل، أنه لا توجد أي مشاكل متوقعة في الأجهزة الخاصة بالنظام من حيث الأمور الفنية، موضحاً أن نظام البصمة قبل تطبيقه مر بمراحل من الاختبار والتهيئة الفنية على مدى عدة أشهر.

يشار إلى أن المديرية العامة للجوازات السعودية أعلنت عن تركيب وتشغيل نظام البصمة الإلكترونية في معظم مناطق البلاد مطلع سبتمبر (أيلول) 2007 الماضي، حيث بدأت في تطبيق النظام في جوازات العاصمة الرياض، كمرحلة أولى.

تلاها تعميم نظام البصمة الإلكترونية في عدة مدن بالمناطق الجنوبية والشرقية من البلاد، إضافة إلى جوازات العاصمة المقدسة، وإدارة الوافدين في مدينة جدة.

وبحسب النظام الإلكتروني الجديد، الذي يتمثل في شاشة إلكترونية يضع الزائر أو المقيم أصابع يده عليها للدخول إلى بنك المعلومات، سوف يتم إصدار وطباعة بطاقة إقامة لكل وافد سواء كان رب أسرة أو تابعا بغض النظر عن أعمارهم، ويرتبط نظام طباعة الإقامة بالنظام المالي الذي سوف يسهّل سرعة إصدار وطباعة بطاقات الإقامة. يذكر أن نظام البصمة الإلكتروني أقرت السلطات السعودية تطبيقه في كل من مطاري الملك عبد العزيز الدولي بجدة والأمير محمد بن عبد العزيز بالمدينة المنورة على الزوار القادمين لأداء العمرة في شهر رمضان المقبل.

(الاثنين 23 شعبان 1429 هـ

25 أغسطس 2008 العدد 10863

صحيفة الشرق الأوسط)

(6) إسلام أباد:

عاصمة باكستان تقع شمال غربي البلاد على هضبة بوتوهار. تقع على ارتفاع يتراوح بين 400 و600 متر وتصل مساحتها لـ 906 كيلومترات. عدد سكانها حوالي 955 ألف نسمة. اختيرت عاصمة للبلاد في ستينيات القرن العشرين، وصممت وبنيت في ذاك العقد وانتهى العمل

فيها في 1967م وأعلنت عاصمة رسمية للبلاد.

(7) الباشا بازي أو لعب الغلمان: هو مصطلح يطلق على الأنشطة التي يمارسها الأطفال الذكور من رقص وتقرب جنسي من البالغين الذكور.. تشمل هذه الممارسات استغلال الأطفال بعبودية إباحية.. في عمر ما قبل المراهقة.. لصالح الأشخاص الأغنياء أو أصحاب النفوذ من أجل الترفيه والجنس.. ينتمي معظم أولاد باشا بازي إلى عائلات فقيرة جداً.. حيث يتم استغلال فقرهم بأخذهم من عائلاتهم وتدريبهم على الرقص النسائي.. وعلى وضع المستحضرات التجميلية كالمساحيق وغيرها.. ومهمة الصبي بعد ذلك الرقص والتمايل بالحفلات.. ثم يتم تمريرهم بين الرجال المتواجدين.. تبدأ أعمار الأطفال بالعادة من العاشرة وعند اقترابهم من الثامنة عشر.. يتم إطلاق سراحهم.. مثل هذه العادات موجودة في بعض أنحاء أفغانستان.. حيث تعتبر الحكومة أن هذه الممارسات غير قانونية وتستحق العقوبات الصارمة.. لكن السلطات الأمنية لا تستطيع السيطرة على ذلك.. ولا الحد منها.. لأن الأشخاص المشاركين في أنشطة الباشا بازي مسلحين جيداً ولديهم نفوذ قوي.

(8) حدثت قصة مشابهة بعض الشيء هزت الشارع السعودي.. تحمل ظروفا مختلفة لطفلة سعودية كانت ضحية رغماً عنها..

القصة نشرتها صحيفة عكاظ.. وانتشارها بهذا الشكل.. جعل قناة بحجم قناة MBC تهتم بها بشكل أكبر.. حيث تم التواصل مع الفتاة ولقائها في برنامج الثامنة مع الإعلامي داوود الشريان.. مختصر القصة المؤلمة تقول:

إن طفلة عمرها 14 عاما.. حصلت لها قصة قبل 20 سنة تقريباً مع زوجة والدها «سورية الجنسية».. حيث أرسلت هذه الطفلة الضحية إلى محل للوازم المنزلية.. فاستغل صغر سنها عامل باكستاني.. فقام بالاعتداء عليها بالقوة.. ثم عادت الطفلة إلى البيت وأخبرت الزوجة.. استغلت الزوجة هذه الحادثة

وبدأت تخيف الفتاة وتهددها بشكل مرعب بأن والدها لن يرحمها وقد يقتلها لو علم عن تلك الفضيحة.. حتى أقنعتها بالذهاب مع الرجل الباكستاني إلى جدة إلى أن يهدأ الوضع.. بعد ذلك طلبت من العامل أن يبعدها عن البلاد وإلا سوف يكون القتل مصيرها.. والانتقام منه من قبل والدها.. فذهب العامل الباكستاني إلى القنصلية الباكستانية واستخرج جوازا لزوجته الأولى في باكستان على أنها هي هذه الفتاة.. فحصل ذلك.. وغادر معها بالقوة إلى بلده، مستغلاً صغر سنها وخوفها من القتل وكذلك ثقتها في زوجة والدها غير الأمينة.. ظناً منها بأنها سوف تعود بعد هدوء الأوضاع العائلية.. تقول إنها عاشت أسوأ لحظات حياتها.. حيث أنجبت أطفالاً وعملت خادمة في البيوت.. قبل أن تصل بمعجزة إلى الإعلام السعودي بعد محاولات كثيرة غير ناجحة.. خلال 20 عاما.. بسبب معرفتها عدة معلومات مهمة تخص عناوين أهلها.. وبعد هذا كله.. رفض والدها بعد معرفته قصتها استقبالها.. خوفاً من تشويه السمعة وغيرها من الأمور..

ولكن.. بعد ظهورها على قناة MBC.. أعلن أمير منطقة جازان صاحب السمو الملكي محمد بن ناصر بن عبدالعزيز.. بإنهاء وضعها في أقرب وقت..

....

جزء من خبر صحفي يخص الحادثة:

حول مرور الفتاة من منافذ التفتيش التابعة للجوازات بجواز سفر باكستاني.. قال الناطق الرسمي للمديرية العامة للجوازات.. طالما ان السيدة خرجت بجواز رسمي صادر عن القنصلية الباكستانية.. فإن خروجها يعد نظامياً.. ولاسيما أنه ليس لديها سجل لدى الجوازات السعودية، فضلاً عن أن التقنيات المستخدمة قبل 20 عاما.. لم تكن مهيأة لكشف مثل هذه الحالات.. بخلاف الوقت الحالي حيث تستخدم تقنية بصمة العين.

المصدر: صحيفة عكاظ.. الخميس 18 اكتوبر 2012

(9) كثير من العائلات يهملون هذه النقطة كثيراً.. وهي عدم تعليم أطفالهم على حفظ الأرقام المهمة للعائلة.. معظمهم يعتمد على تخزين الأرقام خلف الأسماء من دون حفظها.. وهذا قد يضع أفراد العائلة في حرج.. عند وقوعهم في مأزق ما.. خصوصا الأطفال الصغار.. وهذا ما حدث مع إيمان للأسف.

(10) جماعة طالبان: طالبان الأفغانية حركة إسلامية سياسية مسلحة وقد نشأت عام 1994م وحكمت أجزاء كبيرة من أفغانستان .. وقد أعلنت قيام الإمارة الإسلامية في أفغانستان.. ثم تقهقرت وانحصر دورها في عمليات الاغتيالات والتفجير وغيرها من الاضطرابات الأمنية بعد فقدها للحكم.. حصلت بعد ذلك مشاورات دولية مطولة.. تم التوصل فيها إلى فتح مكتب سياسي لها خارج أفغانستان.. من أجل إجراء التشاورات في الأوضاع السياسية في بلادهم.. فقرروا إنشاء مكتبهم في دولة قطر.. يذكر أن مكتب إمارة أفغانستان الإسلامية في الدوحة.. هو أول تمثيل معترف به دولياً لحركة طالبان منذ الإطاحة به من السلطة بسبب الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على أفغانستان في عام 2001).

(11) تكثر حوادث قتل جماعة طالبان لأفراد الأمن الأفغاني في البلاد.. بحجة عملهم مع حكومة لا تحكم بالشرع.. ما شكل ذلك خطراً كبيراً على رجال الأمن.. فعلى سبيل المثال.. وقعت أحد أكثر الحوادث شهرة هناك.. يقول الخبر:

قال ضابط شرطة كبير في إقليم قندهار الواقع في جنوب

أفغانستان ان المبنى الحكومي الرئيسي في بلدة ميان نيشين أصبح تحت سيطرة عناصر طالبان بعد هجمات وقعت ليلتي الخميس والجمعة والتي تم خلالها أسر 30 من ضباط الشرطة وقائد المنطقة.. واتصل قائد طالبان الملا رحيم الذي قاد الهجمات بوكالة رويترز للأنباء وسلم التلفون الى قائد

الشرطة الكبير المحتجز لديه وهو قائد شرطة المنطقة ناناي خان، فقال خان المتوتر «انهم سيحاكمونني»، وسئل عما اذا كان أي من المجموعة قتل فقال خان في بادئ الأمر «نعم» ولكن بعد بضع ثوان من الصمت على الخط صحح نفسه وقال «لا».. وقال رحيم إنه لم يتم قتل أحد من الأسرى وأن مصيرهم سيحدده الزعماء الدينيون، وأضاف «سنحاكمهم.. لن نقتل أحداً قبل إصدار الملالي فتوى.. وعندما يصدرون فتوى سنقرر ما نفعله»، وسئل عن الاتهامات الموجهة لهؤلاء الرجال فقال «إنهم يعملون لحساب الحكومة.. وطلبنا من الناس عدة مرات عدم العمل مع الحكومة».

المصدر: 19 يونيو 2005م - كابول- رويترز)

(12) مدينة بيشاور: هي مدينة باكستانية وعاصمة إقليم بيشاور.. تقع المدينة قرب الحدود مع أفغانستان.. يشكل البشتو غالبية سكان المدينة.

(13) محافظة حجة: تقع إلى الشمال الغربي للعاصمة صنعاء، وتبعد عنها حوالي 123 كيلو متراً، وتحتل المرتبة الخامسة بين محافظات الجمهورية من حيث عدد السكان، وعدد مديرياتها 31 مديرية، ومدينة حجة مركز المحافظة، وأهم مدنها حرض وعبس.

(14) في العام 2007، أجرت أستاذة الانثروبولوجي بجامعة بيركلي البريطانية سوزان هيوز، وهي واحدة من المؤسسين لمنظمة «اورغان ووتش»، بحثا شاملا عن المتاجرة بالأطفال والأعضاء البشرية، واعتمدت على تقديرات تشير الى أن مليون طفل على الأقل اختطفوا وقتلوا خلال السنوات العشرين الماضية، بغرض الحصول على أعضائهم. ويمكن للكلية أو العين أن تباع بسعر 10 آلاف دولار، ويصل سعر القلب الى 50 ألف دولار أو يزيد. وتشير تلك التقديرات الى أن غسل الأموال في هذه العملية، يصل الى 10 في المئة من اجمالي الناتج المحلي في العالم او ما

يبلغ خمسة تريليونات دولار. وكنتيجة لذلك، فإن السوق السوداء لأعضاء الأطفال تنمو أكثر ويخطف ويقتل مزيد من الأطفال كل يوم.

وبينما يكون الضحايا أساسا من دول في آسيا وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق وأميركا اللاتينية وأفريقيا فإن هذه التجارة توجد أيضا في الدول المتطورة.

ويعطي وسطاء هذه العمليات وعودا زائفة بتوفير فرص عمل للأطفال ودفع أموال الى الآباء. كما تجري سرقة الأطفال من دور الأيتام أو الحصول عليهم عن طريق عمليات التبني المزورة ثم يقتلون للحصول على أعضائهم. وقد يحصل الوسيط على ما يتراوح بين 20 و50 الف دولار على الطفل الواحد، وفقا لبلدان الضحايا. وفي حالات كثيرة يجري إقناع الأهل الفقراء أحيانا ببيع أعضاء أطفالهم بما يصل الى 500 دولار.

المصدر: صحيفة الوسط البحرينية - العدد 2134 - الخميس 10 يوليو 2008م.

(15) القات: هو أحد النباتات التي تنبت في شرق أفريقيا واليمن «جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.. صنفته منظمة الصحة العالمية كعقار ضار من الممكن أن يتسبب في حالة خفيفة أو متوسطة من الإدمان.

(16) مهمتهم حراسة حدود المملكة البرية والبحرية والموانئ والمرافئ، ومكافحة التهريب، والتسلل من الداخل والخارج مع مراعاة الأنظمة المعمول بها.

(17) مديرية حرض: هي إحدى مديريات محافظة حجة في اليمن.. وهي مدينة حدودية قريبة من الحدود السعودية حيث تبعد حوالي 6 كيلومترات عن خط الحدود.

(18) استضافت قناة MBC وعبر برنامجها.. الثامنة.. أحد مدراء مراكز الإيواء.. الاستاذ نبيل شالف.. مدير مركز الحماية الاجتماعية المؤقتة للطفولة في حرض باليمن.. واستعرض ما يواجهه مركزهم من متاعب.. حيث قال: بأن وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل نفذت دراسة ميدانية حول تهريب الأطفال من عام 2002 إلى عام 2003 وتم إعلان النتائج في عام 2004 بدعم من منظمة اليونسيف عبر مكتب وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في محافظة حجة.. أظهرت النتائج بأن حوالي 27 ألف طفل منهم مجموعة كبيرة تكررت محاولة دخولهم للمملكة.. لذلك تم حصرهم بمتوسط 9 ألاف طفل من غير هوية.. يهربون سنوياً للسعودية فقط!.. وعليه كما يقول تمخضت فكرة إنشاء هذا المركز.. الذي يقوم بالاهتمام بقضايا تهريب الأطفال.. تم تأسيس المركز عام 2004.. وتم تشغيله عام 2005..

وأعلن بالبرنامج إحصائية للأطفال الذين تم استقبالهم بالمركز فقط.. منذ بداية عملهم.. وحتى عام 2012..

العام الذي عُرضت فيه الحلقة على الهواء مباشرة..

العام	عدد الأطفال الذين تم استقبالهم من قبل الجهات المعنية
2006	796 طفل
2007	603 طفل
2008	542 طفل
2009	620 طفل
2010	655 طفل
2011	636 طفل
2012	518 طفل

بعض هؤلاء الأطفال تكرر خروجهم وعودتهم!

معظمهم تمت إعادتهم من قبل السلطات السعودية..

يتم بالمركز أخذ صورهم واسمائهم لعمل قاعدة بيانات بسيطة.. ولكن كما يذكر مدير المركز..

هذا لا يكفي.. فهم يواجهون صعوبات كثيرة.. حيث ينقصهم العلاج الكافي والاهتمام..

لذلك ينتظرون أي إثبات يقدم من قِبل عوائل الأطفال..

كي يسلمونهم لهم!

(19) زواج القاصرات ظاهرة قديمة تنتشر بشكل أكبر في البلدان العربية والخليجية.. والبلدان النائية بشكل عام مثل اليمن وأفغانستان وغيرهما.. يسعى الكثير في هذا العصر إلى وضع حد قانوني لها.. من خلال مواثيق دولية.. بعض الدول على الرغم من وضعها لقانون ضد هذه الأفعال.. إلا أنها لم تستطع أن تردع أو تغير قناعات وعادات البعض تجاه هذه الزيجات.. موضوع خطير مثل هذا يحمل انتهاكات واضحة لحقوق الأطفال.. يحتاج إلى قانون صارم جداً يوقف المتجاوزين ويعاقبهم.. بالإضافة إلى نشر الوعي بينهم.. ولكن يبقى للزمن وتغير الحياة والثقافة المختلفة تماماً لهذا الجيل.. دور كبير في اختفاء هذه الظاهرة البشعة خلال السنوات المقبلة.